الفصل الثاني

جذور المؤامرة على الأمة

لماذا يتآمرون على الأمة الإسلامية

أدرك الغرب الصليبي أنه لم يكن من باب المصادفة أن يغدو المسلمون سادة العالم طوال حلقة كبيرة من حلقات تاريخه، ولم يكن من باب المصادفة أن تُصبح الدولة الإسلامية على مدى عدة قرون في العصور الوسطى أقوى دول العالم سياسيًا وحربيًا، وأعظمها حضارة ورقيًا، وأكثرها إبداعًا وخَلْقًا وابتكارًا.

أدرك الغرب أن هذه القوة، وتلك العظمة الخالدة قد تحققت نتيجة لما تمتع به العالم الإسلامي من إمكانات ضخمة، روحية وبشرية واقتصادية وغيرها، مما زوده بطاقة بَنَّاءة كبيرة، ساعدته على تحقيق تلك المكانة السامية.

هذه الإمكانات التي توفرت للعالم الإسلامي ليست بالمزايا المؤقتة التي تتغير بتغير الوقت ومرور الزمن، وإنما هي راسخة ثابتة، بعضها أصيل في بنية البشر، خالد في قلوبهم ونفوسهم وعقولهم، تتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل، وبعضها الآخر تمتد جذوره بعيدًا في البيئة والأرض، مما يضمن للأمة الإسلامية بقاءً أبديًا، ورفعةً وازدهارًا.

الإمكانات الروحية للأمة الإسلامية

الإسلام عقيدة أنزلت بأمر الله حسب فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولا يجبر الإسلام الناس على اتباعه أو اعتناق عقيدة معينة، قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لها، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، وإنما يُطالب الحكام والمسؤولين بالسماح للدعوة الإسلامية في الانتشار، فمن قبلها من الناس فله شأنه، ومن رفضها فله رأيه. ومما لا شك فيه أن الناس إذا أُعطوا هذا الخيار وهذه الحرية، فإنهم سيقبلون هذه الدعوة، ويدينون بالإسلام، إلا أن الظالمين من الحكام، وهم أكثر المسيطرين على العالم، يقفون في وجه

(١) البقرة ٢٥٦.

الدعوة، ويَحُولُونَ دون انتشارها، خوفًا على مصالحهم، وحرصًا على مراكزهم، لأن في سيادتها قضاء على نفوذهم، وانتهاء على تسلطهم، وهؤلاء هم الذين يُعلن الإسلام القتال ضدهم، والوقوف أمام طغيانهم.

قال تعالى: ﴿وَمَالَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ۞ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1].

وفي مقابل القتال في سبيل الله، يحصل المسلم على السعادة في الدنيا بالتمكين له في الأرض، والنجاة من العذاب الأليم في الآخرة. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

الإسلام عقيدة انتشرت بالقوة على الظلد، كما انتشرت بالدعوة.. قاتل الظلم وشن الحرب على البعض، ذلك لأن الظلم عندما يتمادى لابد أن يُوقِف السيف من طغيانه.

الإسلام أخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل السماء، وأخرج الناس من الظلمات التي رانت على قلوبهم وأبعدتهم عن عبادة الله خالق البشر وخالق كل شيء.

الإسلام يدعو إلى وجود جماعة من المسلمين ذات معنويات عالية، وإيمان قوي، تحمل راية الجهاد، وترفع شعار القتال ضد الطغاة. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [3]. وكان المسلمون وهم يدعون إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة يعتمدون في تحركهم على أن الإسلام تتمثل فيه كل القيم والمثل العليا المفعمة بطلب الخير لمصلحة الإنسانية جمعاء، وكل أحكام الإسلام وفضائله وتشريعاته وفرائضه تؤكد أنه الدين الأكثر انفتاحًا

(١) النساء ٧٥-٧٦.
(٢) الصف ١٠-١٣.
(٣) آل عمران ١٠٤.

على الناس، وأن رسالته مطلوب لها أن تشيع وتنتشر بين الناس لمصلحة كل الناس.

كان الجهاد الذي تدفعه الإمكانات الروحية والحماسة الدينية الجارفة وراء انطلاق الجيوش الإسلامية من شبه الجزيرة العربية، مكتسحة أكبر إمبراطوريتين كانتا تسيطران على أقدار الناس في فارس والعراق والشام ومصر، وتدق أبواب أوروبا وأواسط آسيا، وتُنازل أباطرة المسيحية والصليبية.

الإسلام ليس نهجًا للعبادة، وأسلوبًا لذكر الله فحسب، بل هو دستور للحياة بأوسع معانيها، وأرحب آفاقها الدينية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية وغيرها. إن الإسلام جعل من المسلم لبنة بشرية صالحة لبناء المجتمع الناجح، فرسم له كيف يعيش، وكيف يتعامل مع الله ومع الناس، وكيف يفكر، وكيف ينجح، وكيف يُحسن الاستفادة من النعم العديدة التي أنعم بها الله عليه.

الإسلام هو الذي حمى الوطن الإسلامي في الشرق من هجمات التتار، وتحدى الزحف الصليبي. كافح التتار بقيادة شيخ الإسلام المعز بن عبدالسلام، والإمام أحمد بن تيميه، وقاوم الفرنسيين في الجزائر على يد بن باديس، وحارب الطليان في ليبيا على يد عمر المختار، ونازل الإنجليز في القنال وأقض مضاجعهم، على يد كتائب حسن البنا، ونازل العصابات الصهيونية في فلسطين المحتلة على يد كتائب عزالدين القسّام.

الثقل السياسي والاقتصادي للأمة

١- العالم الإسلامي قوة سياسية لهاخطورتها، وقوة مميزة على الساحة الدولية، يرجع ذلك إلى موقعه المتميز علىخارطة العالم، وإلى ما لديه من إمكانات وثروات اقتصادية لا حدود لها، تتمثل في مصادر الطاقة، وثروات معدنية وزراعية وحيوانية، وقبل هذا وذاك ما يسمى بالصحوة الإسلامية، أو ما وصف بالبعث الجديد للمسلمين في العالم، المتمثل في إقبال الملايين من الشباب ـ فتياناً وفتيات ـ في الغرب والشرق على الإسلام، وإقبال عدد كبير من المفكرين والعلماء في ديار الغرب على الإسلام، وتحول عدد من رؤساء الدول إلى الإسلام بعد دراسة فاحصة متأنية، وبحث جاد[1].

العالم الإسلامي قوة سياسية لها خطورتها وأهميتها في ميزان القوى العالمية،

(١) د. عادل طه يونس ـ العالم الإسلامي اليوم.

لأنه يتحكم في أهم الممرات المائية الملاحية في العالم، والتي تتمثل في:

(١) مضيق البسفور والدردنيل، اللذين يربطان البحر الأسود بالبحر الأبيض المتوسط، ويتوسطهما بحر مرمرة تحت إشراف تركيا.

(٢) مضيق جبل طارق الذي يربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي، ويُشرف عليه المغرب من الجنوب.

(٣) مضيق هرمز الذي يربط الخليج العربي ببحر العرب والمحيط الهندي، وتُشرف عليه دول الخليج العربي.

(٤) مضيق ملقا الذي يقع بين ماليزيا الغربية وجزيرة سومطرة (أندونيسيا)، وتُشرف عليه ماليزيا وأندونيسيا.

(٥) قناة السويس التي تربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، والتي تمثل حلقة الاتصال البحري بين الشرق والغرب[١] وتقع داخل الأرض المصرية.

ولا تقتصر أهمية هذه الممرات البحرية والمضايق الاستراتيجية على النواحي الملاحية فقط، وإنما تمتد إلى النواحي السياسية والعسكرية أيضًا، لذلك بدأت الدول الكبرى تتصارع للسيطرة عليها.

٢- يحتل العالم الإسلامي المرتبة الأولى في الإنتاج النفطي في العالم، حيث ينتج نحو ثلث الإنتاج العالمي، كما يبلغ احتياطي البترول داخل أراضي الدول الإسلامية نحو ٦٣٪ من الاحتياطي العالمي للبترول. وتحتص المملكة العربية السعودية وحدها بنحو ربع احتياطي البترول في العالم كله: كما أن منظمة الدول المصدرة للنفط - أوبيك - والتي تضم ١٣ دولة، وتُنتج أكثر من ثلث الإنتاج العالمي من البترول تشكل الدول الإسلامية غالبية أعضائها، حيث تضم المنظمة ١١ دولة إسلامية هي السعودية - الكويت - الإمارات العربية - قطر - ليبيا - الجزائر - إيران - أندونيسيا - نيجريا - جابون. بالإضافة إلى دولتين غير مسلمتين هما فنزويلا وإكوادور.

ينتج حوض الخليج العربي ما يقرب من ٦٨٪ من إنتاج العالم الإسلامي من النفط، وتُقدّم أحواض ليبيا والجزائر ومصر ونيجريا وسواحل خليج غينيا حولي ٢٠٪ من الإنتاج، كما تسهم منطقة بحر الخزر (قزوين) في أحواض باكو في

(١) جغرافية الدول الإسلامية - جوده حسنين جوده - على أحمد هارون - ص١٦.

أذربيجان، وحوض غروزني في الشيشان، وحوض نهر مايكوب وكوبان في شمال القفقاس الغربي، وحوض شبه جزيرة كيرتش في شبه جزيرة القرم، وحوض نهر الكاما في جمهورية تتاريا، وحوض نهر إمبا في جمهورية كازاكستان، وحوض بنيت داغ في جمهورية تركمانستان - تُعطي هذه المنطقة ما يقرب من ٩٪ من إنتاج العالم الإسلامي، بالإضافة إلى أندونيسيا في الشرق الأقصى فتنتج حوالي ٢,٥٪ من إنتاج العالم الإسلامي.

ولو أضفنا ما تُصرِّ الشركات الأمريكية على عدم كشفه لارتفع إنتاج البلاد الإسلامية ولارتفع إحتياطيها.

٣- يمتلك العالم الإسلامي ثروات معدنية هائلة، كالحديد في موريتانيا وكازاكستان، والمنجنيز في قفقاسيا والمغرب، والكروم في تركيا وألبانيا وتتاريا وكازاكستان، والقصدير في أندونيسيا وماليزيا (تُقدمان نحو ٩٠٪ من إنتاج العالم الإسلامي الذي يعادل ٥٦٪ من الإنتاج العالمي)، كما يحتل العالم الإسلامي المرتبة الأولى في إنتاج فلزات الألمونيوم (البوكسيت) في أذربيجان وغينيا وكازاكستان وأندونيسيا. ويحتل المرتبة الثالثة في إنتاج الفوسفات، هذا بالإضافة إلى كميات أخرى من الذهب والماس واليورانيوم والكوبالت والنيكل والتنجستن وغيرها.

٤- يمتلك العالم الإسلامي إمكانات كبيرة من رؤوس الأموال المودعة في مصارف أوروبا وأمريكا، والأخرى المجمدة التي لا يستطيع توظيفها في التصنيع وسائر المشروعات الحيوية.

٥- يمتلك العالم الإسلامي موارد وثروات زراعية ورعوية وحيوانية متنوعة أسالت لعاب الغرب الصليبي الحاقد على الإسلام والمسلمين قرون طويلة. وهناك مساحات من الأفدنة والهكتارات التي تصل إلى الملايين من الأراضي الزراعية في السودان والعراق وليبيا وباكستان ومصر والجزيرة العربية، وهناك من الموارد المائية نهر النيل، دجلة والفرات، السند، وغيرها.

٦- تشكل مساحة العالم الإسلامي حوالي ربع اليابسة على الأرض، وهي على وجه الدقة تشكل نسبة ٢٣,٤٪ منها، إذ تبلغ ٣١,٧١٥,٣٩٣ كم^2، وهو بهذه المساحة يفوق قليلاً مساحة القارة الأفريقية التي تُعد ثاني قارات العالم من حيث المساحة،

ويصل لأكثر من ثلاثة مرات ونصف من مساحة الولايات المتحدة الأمريكية، وأكثر من ثلاثة مرات من مساحة قارة وروبا.

ولا شك أن لسعة المساحة دور هام في زيادة الوزن السياسي للعالم الإسلامي، حيث تُعطي المساحة فرصًا متنوعةً بالنسبة للإنتاج، بالإضافة إلى ما تفرضه على العمليات العسكرية البرية، لذلك تؤكد الدراسات على أن المساحة ثروة تزداد أهميتها عادة إذا ما توفر لها العدد المناسب من السكان الذين يستغلون ما يتوفر فيها من موارد طبيعية.

الإمكانات البشرية

تُعد الثروة البشرية من الثروات الكبرى البناءة التي يمتلكها العالم الإسلامي ويعتز بها، ذلك أن الإنسان هو القوة الفعّالة في الإنتاج، سواء أكان هذا الإنتاج روحيًا أم فكريًا أم ماديًا. ومهما يتاح لوطن من الأوطان من إمكانات طبيعية وثروات، فالعبرة دائمًا بالبشر الذين يتوقف عليهم حسن استغلال هذه الإمكانات والإفادة منها، حيث تتحول هذه الثروات بفكر الإنسان وجهده ومثابرته إلى طاقة خلاقة تعود على الجميع بالخير والبركة.

واليوم يُقدَّر عدد المسلمين بنحو ١,٢ مليار مسلم يمثلون نحو خُمس سكان العالم، ويعيش نحو نصف هذا العدد في المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غربًا حتى حدود الصين وجزر الهند شرقًا، ومن تخوم البحر الأسود وبحر قزوين شمالاً، حتى المنطقة المدارية جنوبي خط الاستواء جنوبًا، وهذه هي المنطقة التي قامت بين جوانبها في الماضي الدولة الإسلامية.

أمّا بقية المسلمين فيعيشون مُوزَعين في مشارق الأرض ومغاربها على هيئة أقليات أو أكثريات تحكمها عناصر لا تدين بالإسلام.

هذه الإمكانات البشرية الضخمة التي تزعج الأعداء هي في مقدمة ما أنعم الله به سبحانه على هذه الأمة، لأنها هي القادرة على الإنتاج، وعلى العمل، وعلى الصمود أمام التيارات المضادة التي تعترض مسيرة هذه الأمة، التي شرفها الله عندما وصفها بأنها ﴿كُنتم خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١)، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى

(١) آل عمران ١١٠.

النَّاسِ﴾ (١).

ثم أنه لا يعيب الأمة الإسلامية من الناحية البشرية أنها تتألف من عناصر ذات أصول عرقية متباينة، عربية وفارسية، وتركية وكردية، وبربرية وتترية، وغيرهم، لأن هذا التباين الجنسي في حد ذاته هو مصدر من مصادر القوة، فقد أثبتت الدراسات الجنسية أن لكل جنس من الأجناس البشرية خصائص معينة، ومزايا في جانب محدد يتفوق بها على غيره، كما أن هذا يعني تعدد المواهب والصفات الفكرية والجسمانية والخلقية داخل هذه الأمة، وقد أوضح القرآن الكريم أن هذا التباين العرقي جاء لحكمة إلهية سامية، وأنه يشكل ميزة اجتماعية نافعة، إذ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (٢)، وفي الوقت نفسه جاء الإسلام ليخلق منها بناءً واحدًا متكاملاً مرصوصًا، يَشُدُّ بعضه بعضًا، لا فضل فيه لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

وقد حدث في تاريخ الأمة الإسلامية أنه عندما استنفذ العنصر العربي طاقته في بناء الدولة الإسلامية، نهض الفرس والبربر يكملوا المسيرة في بناء الدولة، وإبلاغ رسالة الإسلام إلى الشعوب المجاورة، فحملوا الإسلام إلى حدود الصين شرقًا وإلى غرب أفريقيا والأندلس غربًا. ولما تعرض قلب الوطن الإسلامي لهجمات الصليبيين والتتار، هب الأتراك والأكراد والتركمان للدفاع عن تراث الإسلام، وقاموا بدور مُشَرِّف يحفظه لهم التاريخ.

هذه الإمكانات البشرية الهائلة هي التي تُرهب أعداء الله في كل زمان ومكان.

قال الألماني "**بول شيمتز**" في كتابه "**الإسلام قوة الغد**": إن مقومات القوة في الشرق تنحصر في عوامل ثلاثة:

(١) في قوة الإسلام كدين، وفي الاعتقاد به، وفي مُثُلِهِ، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة.

(٢) وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي، الذي يمتد من المحيط الأطلسي على حدود مراكش غربًا إلى المحيط الهادي على حدود أندونيسيا شرقًا. وتهييء هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة

---

(١) البقرة ١٤٣.
(٢) الحجرات ١٣.

قوية، ولاكتفاء ذاتي لا يدع المسلمين في حاجة مطلقة إلى أوروبا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا.

(٣) خصوبة النسل البشري لدى المسلمين، مما جعل قوتهم العددية متزايدة.

ثم قال: فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث، تآخى المسلمين على وحدة العقيدة، وتوحيد الله، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزيد عددهم، كان الخطر الإسلامي خطرًا منذرًا بفناء أوروبا، وبسيادة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله...".

ثم يقترح لصد هذا الخطر الذي صوره ماحقًا لأمته: أن يتضامن الغرب المسيحي، شعوبًا وحكومات، ويعيدوا الحروب الصليبية في صورة أخرى ملائمة للعصر، ولكن في اسلوب نافذ حاسم [١].

ويقول روبرت بين في مقدمة كتابه السيف المقدس: "علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم، لأنهم حكموا العالم سابقًا، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى، سيما والشعلة التي أضاءها محمد لا تزال مشتعلة بقوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ، و لهذا ألفت هذا الكتاب لكي يقف القراء على أصل العرب، وسميته باسم السيف ذي النصلين، الذي نالـه محمد في موقعة بدر، تذكارًا لانتصاره لأن السيف أصبح رمزًا لمطالب الإمبريالية [٢].

الأحوال التعليمية لسكان دول العالم الإسلامي

تؤكد الإحصاءات والتقديرات المأخوذة لدول العالم الإسلامي في منتصف عام ١٩٨٧م أن أكثر من ثلثي الدول الإسلامية تقل نسبة التعليم بها عن نصف مجموع سكانها البالغين، أي أن نسبة الأمية بها تزيد عن نصف عدد السكان في كل منها، ويمكن القول بأن نسبة الأمية في دول العالم الإسلامي ككل تبلغ نحو ٦٠٪، وهي نسبة متدنية بالمقارنة مع الدول المتقدمة التي تصل فيها نسبة التعليم إلى ٩٩٪، وحتى مع بعض الدول النامية في العالم الثالث مثل أوراجواي التي تصل نسبة المتعلمين فيها إلى ٩٤٪، والأرجنتين

(١) د. توفيق يوسف الواعي ـ نقلاً عن د. محمد عبدالغني شامه (من محاضرة للدكتور محمد البهي ـ رحمه الله).

(٢) نفس المصدر نقلاً عن د. يوسف القرضاوي في بحثه عن الأمة الإسلامية.

٩٣٪، وسنغافوره ٨٣٪، وفنزويلا ٨٢٪ وغيرها.

ويرجع السبب في ارتفاع نسبة الأمية، ــ وبالتالي انخفاض نسبة المتعلمين ـ في الدول الإسلامية إلى عوامل كثيرة منها وقوع تلك الدول لفترات طويلة تحت السيطرة الاستعمارية الغربية التي عملت بكل طاقاتها على انتشار الجهل والأمية بين أبناء المسلمين، حتى لا تخلق طبقة متعلمة تُطالب بالحقوق السياسية والاجتماعية للشعوب المستعمرة، وهو ما تخشاه الدول الاستعمارية دائمًا.

وفي الوقت الذي حَرمَ الاستعمار أبناء المسلمين من تلقي العلم والتعليم، أعطاه لعدد من المسيحيين صاروا الآن المسيطرين والمتحكمين في أقدار الأغلبيات المسلمة في عدد كبير من الدول الأفريقية المسلمة بصفة خاصة، ومازال هذا الوضع مستمرًا حتى الآن في الدول التي بها أغلبية مسلمة مثل ساحل العاج، وسيراليون، والكاميرون، ونيجريا [1].

المدارس الأجنبية

في عام ١٨٥٩م نشر "دارون" ـ زعيم اللادينية وصاحب النصيب الأوفى في توجيه الأفكار إلى الإلحاد والزندقة ـ كتابه " أصل الأنواع The Oregin of Species "، وساق الحجج المختلفة القاصرة لإثبات نظريته.

ورغم أن أهل البصيرة والفكر لم تطمئن نفوسهم إلى هذه النظرية عندما عُرِضت، بل حتى لم يؤمن بها "هكسلي Huxley" أكبر دعاتها!! إلا أنه قد قُبِلَ بها في التعليم، واستخدموها كسلاح فتاك في محاربة الإسلام، وقام اليهود يروجون لها في كل مكان، ونشروها في مشارق الأرض ومغاربها.

وفي عام ١٨٨٢م توفي "دارون" وكرمته الكنيسة الإنجليزية بأعز ما عندها من تكريم لزعيم الطبقة التي حفرت للدين القبر.

أغلق الإنجليز المدارس الإسلامية في كل بلدان العالم الإسلامي التي احتلوها، وأنشأوا المدارس والكليات ذات الصبغة الإنجليزية، ووضعوا سياسة تعليمية هدفها الأخير إبعاد أبناء المسلمين عن الإسلام، بعد الارتواء من الثقافة الداروينية والتعليم اللاديني.

---

(١) العالم الإسلامي اليوم ـ عادل طه يونس ـ مكتبة ابن سينا.

تعلم أبناء المسلمين في هذه المدارس العلوم الغربية، فكان أول ما انطبعوا به أن تقلبت عقليتهم، وانحرفت ميولهم ومنازعهم من الدين، لأنه كان من أول مؤثرات ذلك الجو المدرسي فيهم أن يقولوا آمنا لكل ما يعرض عليهم من أوروبا، وأن يُطَالِبوا بالحجةِ والدليلِ لكل ما يُعْرَض عليهم من القرآن الكريم أو الحديث النبوي، أو من آثار أئمة الدين.

كانت العلوم الغربية التي تعلمها أبناء الأمة المسلمة في تلك المدارس والكليات مخالفة في أصولها وفروعها لأصول الأحكام الإسلامية وجزئياتها.. صورت لهم أن الدين مجرد عقيدة شخصية، لا علاقة لها بالحياة الإنسانية، وأن الوجود الإلهي ليس بشيء ثابت، كما أن الوحي شيء مُرتاب فيه. وصوروا لهم العبادات والأعمال - التي هي في الإسلام فرائض وواجبات - على أنها من تقاليد العصور المظلمة الجاهلة، مما لا فائدة منها في الوقت الراهن.

اكتسبت الأجيال في هذا التعليم الغربي غير الإسلامي أمورًا تتناقض وتتضاد مع تعاليم الإسلام في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والأخلاق، كان من نتيجة ذلك أن افتقد أبناء الأمة القدرة على النقد والتمييز، واعتبروا كل ما تعلموه من الغرب مقياس الصحة والصواب، ثم راحوا ينتقدون الإسلام بهذا المقياس مع علمهم الناقص، ونظرهم القاصر.. وكلما وجدوا في الإسلام اختلافًا مع الغرب حَمَّلُوا الإسلام ما ليس فيه، بل أقبلوا على مبادئه وقوانينه يحرفونها عن وجهها، ويستبدلون بها مبادئ أخرى.

قد يقول قائل أن المسلمين نقلوا عن الغرب ما يفيد، ولكن هل الخسارة التي جرها هذا التعليم على دينهم وحضارتهم تعادلها أية منفعة أو فائدة!!

حرص الإنجليز - منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر - على أن يكون لهم حضورًا ثقافيًا أوربيًا. لذلك بدأ "كرومر" - المعتمد السامي البريطاني في مصر - في تنفيذ مشروعاته التغريبية والتي طُبقت تطبيقًا واسعًا في الإدارة المصرية، ولقيت من العناصر التي تلقت العلم في الغرب، - في فرنسا وإنجلترا خاصة - ترحيبًا واسعًا، حيث دعمت الأحزاب المصرية - خاصة حزب الأمة ثم حزب الوفد، وحزب الأحرار الدستوريين - هذا الحضور الثقافي الأوروبي الفعَّال، ودعت إليه بحماسة منقطعة النظير.

كان طه حسين من تلك العناصر التي وقفت وراءها إدارة الاحتلال البريطاني في مصر وشجعتها وحمتها من ردود الفعل الشعبية، والتي تجلت خاصة في حملة التغريبيين على القواعد الإسلامية، والمعطيات الدينية، ليس بقصد إصلاحها وإنما بقصد نبذها نهائيًا من أجل إحلال الثقافة الغربية محلها.

كان من التغريبيين الذين وقفت وراءهم إدارة الاحتلال تدعمهم وتحميهم ـ مع طه حسين ـ أحمد لطفي السيد، وشبلي شميل، ومحمد حسين هيكل، وعلي عبدالرازق، ومحمود عزمي، ومنصور فهمي، وإسماعيل مظهر، عَبَّرُوا عن أفكارهم في كلية الآداب من الجامعة المصرية، وفي المنتديات، وفي عدد من الصحف والمجلات، ولقد انحصرت أفكارهم في:

- نبذ الشرق والعرب والإسلام، واللحاق مباشرة بالمدنية الغربية بكل حسناتها، وبكل سيئاتها، وأبرز من مثل هذا الاتجاه طه حسين وأحمد لطفي السيد، وسلامة موسى، ومحمود عزمي ، الذين ارتبط لديهم مفهوم التغريب بمفهوم القومية المصرية أو الفرعونية الضيق المعادي صراحة لكل انتماء عربي وإسلامي وشرقي، تاريخي أو ديني أو أدبي.
- الدعوة إلى الليبرالية التي تحرر فيها العقول من كل سلطة عقلية سابقة، وينظر إلى موضوعات المعرفة والمجتمع والإنسان نظرة عقلية متفردة مدعومة بالفكر الوضعي الخالص. وقد طبق طه حسين المنهج الديكارتي الليبرالي في جوهره في دراسته للأدب العربي الجاهلي، فقرأه قراءة متحررة من كل المعطيات الدينية السابقة، وانتهى إلى نتائج أخرجته عن حدود الاعتقاد الإسلامي.
- الدعوة إلى العلمانية التي تبلورت في الدعوة الصريحة إلى تأسيس الدولة على قواعد عصرية غربية ليس للدين الإسلامي فيها أي دور، أو بمعنى آخر: فصل الدين عن الدولة. وهي نفس الدعوة التي روج لها اللورد "كرومر" وجميع المفكرين المسيحيين العرب وَطَبَّقَتها عمليًا تركيا الكمالية حين ألغت الخلافة سنة ١٩٢٤م.

كان الخروج من الدائرة العربية والإسلامية خروجًا كاملاً أو شبه كامل يعني التبني الكامل للقيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية للمدنية الغربية، وفي الدعوة للارتباط

بأوروبا والتبعية لها.

كان طه حسين من كبار التغريبيين الذين اشتعلت رؤوسهم ذكاءً ونقدًا للمدنية العربية الإسلامية، بينما تقلص هذا الذكاء تقلصًا كاملاً بإزاء المدنية الغربية التي كانت تلاقي في عقر دارها في الفترة نفسها انتقادات لا ترحم.

تنكر طه حسين للمعطيات الدينية الإسلامية، وللثقافة التاريخية، واستبدل بها مرة واحدة، وبلا فحص، معطيات الغرب، ذلك لهزيمة نفسية ثقافية ألمت به لافتقره إلى قوة في النفس، ونفاذ في الرؤية، وبعد في النظر.

عبّر طه حسين في المرحلة التغريبية الخالصة من حياته عن آرائه في كتاب مستقبل الثقافة في مصر الذي نشره في عام ١٩٣٨م، وقد اعتقد أن مستقبل مصر مرهون بأخذها بمثل الحضارة الإنسانية، وبالفضائل المدنية، والديموقراطية التي مثلها الغرب في حياته الحديثة، وأنه لكي تصبح مصر جزءً من العالم الحديث، أن تُصبح جزءًا من أوروبا، وأن تسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع قائلاً: "علينا أن نصبح أوروبيين في كل شيء، قابلين بما في ذلك من حسنات وسيئات".

كان يعتقد أن مصر تنتمي إلى الغرب لا إلى الشرق، وأن ما يربطها بالشرق من مصالح اقتصادية وسياسية هي مصالح عابرة وسطحية. وأن تاريخ مصر في تحقق دومًا مع اليونان من خلال الصلات الجوهرية بالمدنيات الغربية، وأن تطورها الحديث لابد أن يتم، بل ينبغي أن يتم داخل مدنية الغرب الحديث [1].

(١) د. فهمي جدعان، أسس التقدم - ص ٣٣٣.

جذور المؤامرة على التعليم

صوب الاستعمار والصهيونية سهامهم إلى قلب الأمة الإسلامية مصر، ثم إلى العالم الإسلامي، عن طريق إفساد التعليم في مناهجه، ثم إفساد المتعلمين في مفاهيمهم، والتشكيك في معتقدهم وقيمهم.

أفسدوا مناهج التعليم بتغييير وتبديل نظمها في البلاد الإسلامية بما يخدم أهداف الصليبية الحاقدة.

ونجح مخططهم في إبعاد الأزهر الشريف عن مكان القيادة بعد أن عزلوا رجاله وعلومه عن الحياة وعن التأثير والإيجابية في المجتمع.

كان ذلك بواسطة نفر من بني جلدتنا باءوا بغضب من الله ورسوله.!!

جذور المؤامرة على التعليم
في بلدان العالم الإسلامي

وصية لويس التاسع

أدرك الغرب الصليبي، أنه بالقضاء على قوة مصر، فقد قضى على قوة العالم الإسلامي، ذلك لمركزها الحيوي المؤثر في قلب العالم الإسلامي، وخطورة دورها وثقلها في العالم العربي. لذلك كان للصليبيين عناية خاصة بمصر بالذات، وبالقضاء على الإسلام فيها، فصوبوا السهام إليها، ووجهوا حملاتهم الصليبية نحوها.

جاء لويس التاسع بحملته الصليبية السابعة إلى مصر، ونزل دمياط عام ٦٤٧هـ ـ ١٢٤٩م، واستعد للزحف نحو القاهرة، وفي مدينة المنصورة هُزِمَ شر هزيمة، وأسره المصريون في دار ابن لقمان، وظل في السجن حتى افتداه قومه.

عاد لويس بعدها إلى عكا على الساحل الفلسطيني، وظل بها أربع سنوات حاك فيها المؤامرات بين الأمراء المسلمين للقضاء على وحدة كلمتهم، واتصل حينئذ بالمغول وفاوضهم عل تطويق العالم الإسلامي، ثم ذهب إلى تونس بعد ذلك، وهناك قُتِل لويس التاسع تاركًا لقومه وصية خطيرة قال فيها:

(إذا أردتم أن تهزموا المسلمين، فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده.. فقد هُزمتم أمامهم.. ولكن حاربوهم في عقيدتهم مكمن القوة فيها) (١).

استمع الصليبيون إلى النصيحة، وبدأوا يخططون لاقتلاع الإسلام من قلوب المسلمين، وصرفهم عن التمسك بالإسلام، والقضاء على مفهوم الجهاد الذي يُعطي المسلمين القوة القادرة على هزيمتهم.

بدأت الكنيسة الغربية تعمل جاهدة على إخراج المسلم من عقيدته الإسلامية، وصرفه عن دينه، وعن قرآنه، وقررت إعادة تشكيل الإسلام في قوالب غربية Westernization، أو عصرية Modernization، أو إصلاحية Reformation، وسعت إلى تخريب الشخصية الإسلامية وصياغتها على طراز جديد، فتُرجم القرآن،

(١) انظر إلى كتابات المفكر الإسلامي أنور الجندي والأستاذ محمد قطب.

ودرست اللغة العربية، كما درس الإسلام نفسه من حيث هو دين وتاريخ لامتصاص مافيه من قوة وجهاد.

كانت الحروب التي دارت رحاها بين المسلمين وأعدائهم في بلاد الأندلس حروبًا دينية ساهمت البابوية فيها أكبر مساهمة، ولما سقطت آخر دويلة إسلامية في الأندلس سنة ١٤٩٢م بعد معارك وحشية بين المسلمين والصليبيين، بارك البابا الانتصار الصليبي، وشجع الصليبيين على متابعة المسلمين لطردهم من بقية الممالك الإسلامية، فتدافعت قواتهم نحو الشرق يحركها الباعث الصليبي في رحلات استكشافية استهدفت سحق الإسلام في نفوس المسلمين، وحرمانهم من مصادر قوتهم لإضعافهم.

اندفع البرتغاليون والأسبان ومن وَرَائهم الهولنديون والإنجليز والفرنسيون، إنتقامًا من المسلمين الذين قدموا لهم نور العلم والحضارة في الأندلس، وكانت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م على مصر، ثم الإنجليزية عام ١٨٠٧م.

حملة نابليون بونابرت

كانت حملة نابليون على مصر في القرن الثامن عشر (١٢١٣-١٢١٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٠١م) مؤشرًا لتكريس الحضور الصليبي الثقافي في قلب العالم العربي والإسلامي، كمدخل للتواجد السياسي، بل والعسكري في المنطقة، فقد كان للحملة النابليونية دور كبير في تهيئة المناخ الثقافي والسياسي للاستعمار في بلدان العالم الإسلامي.

قرر نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨م احتلال مصر، واتخاذها نقطة انطلاق لبناء إمبراطوريته الشرقية، وجاءت الحملة إلى الأسكندرية، ولما كان نابليون يعلم أن العدو اللدود الذي سيواجهه في غزوه للبلاد ليس جنود المماليك في مصر، وإنما الإسلام الذي هزم لويس التاسع في حملته على البلاد المصرية من قبل، لذلك كان أول عمل قام به أن أرسل إلى علماء الأزهر وشيوخه منشورًا ادعى فيه الإسلام، وأنه أكثر من المماليك في عبادته لله تعالى.

حاول نابليون استخدام علماء الأزهر ورجاله كأداة لكبح جماح الشعب المسلم في مصر، الذي أحس بخطورة الحملة، ولكنه فشل، وفشل في إخماد ثورة الجماهير الغاضبة عليه، لذلك قرر ضرب الجامع الأزهر بالقنابل، ودخلت خيوله الأزهر مركز قيادة

المصريين، ورمز سيادتهم، وتفرقت الجند في صحنه ومقصورته، وربطوا خيلهم في قبلته، وطرحوا الكتب والمصاحف على الأرض، وبأرجلهم ونِعالهم داسوها.

ثار الشعب المسلم في مصر على الحملة، بعد أن أحس بخطر الكفار على دينه، واستحال بقاء الحملة الفرنسية، بعد أن قاد علماء الأزهر وشيوخه المقاومة الإسلامية، ومنذ ذلك اليوم بدأ أعداء الإسلام في تخطيط دؤوب لتدمير الإسلام بضرب التعليم الإسلامي وتجميده وتنحية الشريعة الإسلامية، وتحويل مسار الحياة في العالم الإسلامي.

كانت الحملة الفرنسية ركيزة الإنقضاض الأوروبي الصليبي على الشرق المسلم. بقيت الحملة ثلاث سنوات وثلاث شهور، ولم تكن لها نتيجة تُذكر من الوجهة الحربية، ولكن نتائجها السياسية والفكرية والأدبية والاقتصادية كان لها أعظم الآثار!!.

تخريب التعليم في النصف الأول من القرن التاسع عشر

المرحلة الأولى لتدمير الأزهر الشريف

فشلت الحملة الفرنسية التي جردها نابليون بونابرت على مصر ١٢١٣-١٢١٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٠١م، بعد أن تصدى لها الشعب المصري بقيادة علماء الأزهر وشيوخه، وبعد أن أعلن السلطان سليم الثالث سلطان الدولة العثمانية - التي كانت مصر إحدى ولاياتها - الجهاد الديني ضد الغزو الصليبي، وهب المسلمون في كل مكان للدفاع عن أرض مصر المسلمة، هبُّوا كالرجل الواحد لنصرة الإسلام، واستجاب لدعوة الجهاد المسلمون في الحجاز والشام، وشمال أفريقيا، وشبه جزيرة البلقان، وأرسل السلطان العثماني حملة بحرية لقتال الفرنسيين، وأخرى برية لإجلائهم.

سياسة محمد علي باشا التعليمية

كان ضمن جنود الحملة التركية التي وصلت إلى مصر لإجلاء الحملة الفرنسية، رجلاً مُحبًا للزعامة، لم يحظ بتربية مدرسية صحيحة - هو محمد علي - أبْدى مقدرة قتالية أكرهت الفرنسيين على الجلاء عن مصر عام ١٨٠١م، مما ساعده على الوثوب إلى القيادة.

كان محمد علي رجلاً خبيثًا، ذا أطماع واسعة، نجح في الوصول إلى موقع

السلطة، وأصبح حاكمًا لمصر بعد أن استغل ظروف البلاد الداخلية والاقتصادية، وتقرب من الشعب المصري، والعلماء، وأعلن أنه ضد ظلم الحكام، وضد الاستبداد، وظهر للجميع بصورة المنقذ للبلاد، لذلك سار إليه العلماء، وألبسوه لباس الولاية، بعد أن أخذوا عليه عهدًا أن لا يفعل شيئًا دون الرجوع إليهم، وبسبب تأييد العلماء له، أصدر السلطان العثماني أمرًا بتعيينه واليًا على مصر.

بعد أن اصبح محمد علي صاحب السلطان الشرعي في البلاد، بدأ في إزاحة القوى التي يمكن أن تقف في طريقه، وتتكر لمن ساندوه وبايعوه.

أدرك محمد علي فشل نابليون بونابرت، بكل وسائل الترغيب والترهيب في استمالة شيوخ الأزهر الشريف ورجاله، وأن الحملة الاستعمارية قد تحطمت على جدران الأزهر، قلعة الإسلام الحصينة، ومثابة الشرع والفقه في العالم الإسلامي، وأن الأزهر هو القوة الروحية الكبيرة التي يستمد منها الشعب قوته، فتبين له أن الرأي هو القضاء على هذا المصدر، مركز القيادة الدينية والسياسية، والنبع الذي تخرج منه كل الزعامات والقيادات، وأنّ ذلك كفيل بأن يجفف منابعها ويقضي عليها.

رأى محمد علي أن الأزهر قوة تعترض سبيل أطماعه وطموحاته البعيدة، فتنكر للعلماء الذين ساندوه ضد المماليك، وبايعوه على الولاية، فتخلص منهم الواحد تلو الآخر بأية وسيلة كانت، سواءً أكانت شريفة أم غير ذلك، بالإغراء، بالقتل، بالفتن، وأخيرًا قبض على الشيخ عمر مكرم نقيب الأشراف، ونفاه من القاهرة إلى أقصى شمال البلاد.

ثم بدأ محمد علي مسلسل التآمر على التعليم في مصر، فحول التعليم الإسلامي إلى تعليم علماني، لا يلتفت إلى الدين مطلقًا، ولا يعبأ به.

"كان محمد علي الذي اعتلى حكم مصر بعد خروج الفرنسيين، كنابليون بونابرت، كلاهما تحركه أهداف علمانية.. جاء نابليون إلى مصر يحمل معه أفكار الثورة الفرنسية، التي بلورت فكر أوروبا كله في القرن السابع عشر والثامن عشر، والقائم على أساس مبدأ دنيوي خالص يقوم على احترام عقل الإنسان وفكره، ذلك الإنسان الذي يكافح وينجح في حياته المادية الخالصة، ويُعلن عصيانه على الدين" [1].

(١) د. السيد أحمد فرج - جذور العلمانية - الوفاء للطباعة والنشر.

أنشأ محمد علي أول ما أنشأ من معاهد للتعليم على الأسلوب الأوربي ـ بعد أن أبدى إعجابه بالحضارة الأوربية إعجابًا شديدًا ـ مؤسسات تعليمية اصطبغت بالصبغة الأوربية، كانت لغة التدريس فيها اللغات الأجنبية ـ الإنجليزية والفرنسية ـ وكان يرى أن السير بخطى واسعة لتقليد أوروبا، والمشي على خطاها ومنهجها في الحياة أمرًا حيويًا وهامًا، فضرب عرض الحائط بالفكر الإسلامي والأعراف الإسلامية والمحرمات، وكل شيء يحجب تراثه الذي كانت أوروبا راضية عنه.

كانت وسيلة محمد علي في صبغ مصر المسلمة بالصبغة الأوربية هي التربية، والإعداد التعليمي، سواء أكان بالبعثات إلى الغرب، أو باستقدام الأجانب، أو باستبدال المعاهد الدينية بمدارس أجنبية لا دينية، ومن أجل ذلك أرسل البعثات إلى أوروبا، إلى باريس وميلانو ولندن، واستعان بالخبراء الأجانب في فتح المدارس التجهيزية والحربية، ومدارس الطب والصيدلة والزراعة والهندسة، وأسند إدارتها للأوربيين الصليبيين.

انخدع محمد علي بالمناهج الأوربية، فوضعها لمدارس المسلمين، ونسي أن للمسلمين ميراثًا عظيمًا، ومناهج تفوق الغرب لو أحسن استعمالها وتجديدها.

لقد مهدت أوروبا ـ خاصة فرنسا ـ كيف تحكم مصر بعد خروج الفرنسيين منها، وكانت استمرارًا لخطة نابليون.

دخل محمد علي مصر باسم الإسلام، واختاره الشعب والعلماء بسم الإسلام، وبشرط الإسلام.. فأزاح الإسلام عن حركة الحياة، وأعلن أن الإسلام لا يَصلُح.

البعثات التعليمية إلى بلاد الغرب الصليبي

لما عجزت الحملة النابليونية في أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر الميلادي ـ بعد أن هزمتها القوة الإسلامية ـ عن تنفيذ مخططها الصليبي في مصر، بسبب اضطرارها إلى الرحيل، قام محمد علي ـ بعد أن احتوته فرنسا واحتضنته احتضانًا كاملاً ـ بتنفيذ ما عجزت الحملة عن تحقيقه، فأنشأت له جيشًا مدربًا على أحدث الأسلحة، وأسطولاً بحريًا على أحدث طراز، وشجعته على إرسال البعثات إلى أوروبا لينهلوا من العلم والفساد معًا، بدلاً من النهوض بالأزهر الشريف، معقل العلم والعلماء للعالم الإسلامي كله، والذي تخرج منه الأطباء والمهندسون، والرياضيون والفلكيون،

والفيزيائيون، والكيميائيون، أولئك الذين علموا العلم لأوروبا في وقت سادت الغرب الأوربي سحابة كثيفة من التأخر الحضاري، وبلغت فيه الحضارة الأوروبية درجة الحضيض [1].

كان محمد علي باشا عاملاً من عوامل النفوذ الفرنسي الصليبي، وأداة استعملها الغرب واليهود ضد الإسلام والمسلمين، حيث أرسل الشباب المسلم بأعداد متزايدة إلى أوروبا، وهم في سن الفتنة، غير محصنين ليكونوا بعد عودتهم بذور تغيير وإفساد في التربة المصرية، ثم ليؤثروا على المنطقة كلها، والأمة الإسلامية جميعًا [2].

رفاعة الطهطاوي

كان ممن أرسلهم محمد علي مع البعثات التعليمية إلى بلاد الغرب رفاعة الطهطاوي، الشاب الأزهري الذي عاد من فرنسا عام ١٨٣١م بأفكار وبذور غربية على جانب كبير من الخطورة، ثم نثرها في تربة إسلامية ليأتي من بعده من تعهدها بالسقي والرعاية حتى نمت وترعرعت وضربت بجذورها في الأرض.

عاد الطهطاوي من فرنسا بعد أن خُدِعَ بحضارة الغرب، وانبهر بها، ليشيد بسياسة محمد علي التعليمية، ويؤيد اتجاهه نحو أوروبا الصليبية، وتجميده لدور الأزهر مثابة العلم والعلماء، وتحطيمه لعلماء الأزهر وشيوخه، وفتحه أبواب البلاد على مصراعيها للنفوذ الفرنسي التعليمي والثقافي والتربوي، والذي ظل ممتدًا ومؤثرًا إلى اليوم.

ولقد أصبح تأثر أعضاء البعثات بما شاهدوه في المجتمع الأوروبي واضح فيما كتبوه أثناء إقامتهم في أوربا أو بعد عودتهم منها.

قرر رفاعة الطهطاوي في كتابه "المرشد الأمين للبنات والبنين" أن مَدَنِيَّة أوروبا الحديثة تقوم على العقل، وتحقق النتائج نفسها التي تهدي إلى الدين (ومن زاول علم أصول الفقه وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها وجعلوها أساسًا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قل أن تخرج عن تلك الأصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية، التي

(١) انظر الأستاذ محمد قطب ـ واقعنا المعاصر ـ مؤسسة المدينة.
(٢) انظر د. عبدالستار فتح الله سعيد ـ الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام.

عليها مدار المعاملات، فما يُسمى عندنا بعلم أصول الفقه يشبه عندهم بالحقوق الطبيعية، أو النواميس الفطرية، وهي عبارة عن قواعد عقلية تحسيناً وتقبيحًا، ويؤسسون عليها أحكام المدَنيَّة، وما نسميه بالعدل والإحسان، يعبرون عنه بالحرية والتسوية، وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين، والتولع بحمايته مما يفضلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة يسمونه محبة الوطن).

تكلم الطهطاوي في مقدمة كتابه "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية" عن حب الوطن والتعلق به، ووجوب الاهتمام بالمنافع العمومية التي تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال، وأورد كثيراً من الأقوال المأثورة في حب الوطن، وبَيَّنَ أن الوطن جامعة تجمع بين ساكنيه على اختلاف الأديان"، فجميع ما يجب على المسلم للمسلم، يجب على أعضاء الوطن من حقوق بعضهم على بعض، لما بينهم من الأخوة الوطنية، فضلا عن الأخوة الدينية، فيجب أدبًا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظافته، فيما يخص شرف الوطن وغناه وثروته، لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات، وتحصيل المنافع العمومية، وهي تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعًا بمزية النخوة الوطنية" (١).

ومن هنا نرى انبهار الشيخ رفاعة الطهطاوي بكل ما رآه في الغرب، ومهد من حيث يدري أو لا يدري لقبول التشريع الوضعي الذي يستند إلى العقل على قصوره، واستبدل بقانون السماء قانون البشر.. وفي كل رأي رآه أراد أن يقنع نفسه به أولاً ثم يقنع الناس به ويلبسه ثوبًا إسلاميًا ليخرجه إلى المجتمع المسلم، بدون حرج في نفسه أو أمام الناس، وذلك عندما أراد أن يُبرز حب الوطن والوطنية.. يؤيد ما يقول بأحاديث الرسول ﷺ وآثار الصحابة، وكانت هذه الفكرة تقدمة غير مقصودة لفكرة القومية التي استشرى أوارها فيما بعد، وكانت وبالاً على المسلمين في أعز ما لديهم، فكانت المعول الرئيسي في هدم صرح الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م (٢).

عاد رفاعة من فرنسا متزودًا من شريعة أعداء أمته ودينه، ونفى أن يكون الاختلاط والتبرج داعيًا إلى الفساد، أو دليلاً على التساهل في العرض، وأكد على أن

(١) انظر د. محمد محمد حسين ـ الإسلام والحضارة الغربية

(٢) د. حمد صادق الجمال ـ اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر جـ١ دار عالم الكتب ص٤٧-٤٨.

الاختلاط بين الجنسين ليس داعيًا إلى الفساد، فقال: "إن نوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء، لا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك في المحبة والالتئام بين الزوجين".

ودافع الطهطاوي عن مراقصة الرجال للنساء فقال: "إن الرقص عندهم فن من الفنون، وقد أشار إليه المسعودي في تاريخه المسمى بمروج الذهب، وهو نظير المصارعة في موازنة الأعضاء. والرقص والمصارعة مرجعهما شيء واحد يُعرف بالتأمل، ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس".

وتحدث كذلك عن وحدة الفكر الإنساني فقال إن الفكر العربي أو الإسلامي رافد من روافده، وتناسى أن للفكر الإسلامي ذاتيته الخاصة التي لا تنصهر في الفكر البشري، ذلك لتركيبه الرباني.

أدت هذه السياسة التعليمية إلى فتح أبواب البلاد وإلى تدفق الأفكار والنظم الغربية المسيحية، التي اصطدمت بالإطار العقائدي الإسلامي وفككته، كما أدت إلى تفكك القوالب الاجتماعية والثقافية الإسلامية، واستيراد النظم والقوانين التي أحدثت هذا الانقلاب الجذري في حياة المسلمين.

أدت هذه السياسة إلى سريان موبقات الحضارة الأوربية في مجتمعات كانت تتميز بطابع خاص في أخلاقه وطباعه وعاداته الأساسية، التي غرسها الإسلام وأسسها القرآن.

إن إيفاد محمد علي البعثات لأوروبا، واستقدام الخبرات الأجنبية وفق مخطط صليبي أدى إلى طمس هوية مصر العربية الإسلامية.. وبعد ذلك يظن البعض أن محمد علي أراد بمصر خيرًا !!.

كان بناء المدارس الأجنبية، وإهمال التعليم الإسلامي، بمثابة انتكاسة لازلنا نعاني منها حتى اليوم.. فقد فتح محمد علي بوابة التغريب على مصراعيها على العالم الإسلامي، فأحل مبدأي "اللادينية" و"العقلانية" محل الهداية الدينية الإسلامية في الفكر والقانون والتربية.

لقد توهم رفاعة الطهطاوي وأمثاله ممن تربوا على موائد الكفار، أن الانحلال

الخلقي والفساد من ضرورات التحضر والمدنية، لذلك أصبحنا جزءًا من الحضارة الغربية في الفساد والفجور والتحلل بعد أن أخذنا المفاسد وتركنا الصحيح.. ظهر هذا في سلوك الناس، بعد أن استهوتهم مظاهر الحضارة. فتهاونوا في الدين، وتكاسلوا عن أداء العبادات، ثم انهارت الفضائل تحت دعاوى المدنية الكاذبة.

أحدثت سياسة محمد علي التعليمية زلزالاً رهيبًا، نقض بنيان الأخلاق من قواعده، وكانت له نتائج بالغة السوء في كل نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية.. وما أشبه اليوم بالبارحة.

كانت هذه هي المرحلة الأولى من مراحل تخريب التعليم، بتدمير الأزهر الشريف، ذلك الطود الراسخ، والجبل الأشم الشامخ، الذي تكسرت عليه موجات الصليبيين واليهود.

السياسة التغريبية ومحنة التعليم في الأمة

كانت البعثات التعليمية الأولى التي أرسلها محمد علي باشا إلى بلاد الغرب الأوروبي بمثابة معاول هدم في صرح التعليم الإسلامي، حيث حدد مسار الأمة الإسلامية، وجلبت عليها الدمار والخراب، وأصابها بخلل في الفكر والأدب، والقيم والفنون والمعارف، وسائر المناهج السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

زعم هؤلاء النفر لكي يتقدم المجتمع المسلم، ويحقق ما حققته أوروبا من تقدم علمي وسياسي، فعليه أن يُعلن الحرب على الدين، ويعزل الإسلام عن قيادة المجتمع، وأن ينظم شئونه وفق رؤية علمانية لا دينية اتبعتها أوروبا،وأن ينقل الحضارة الأوروبية.. حلوها ومرها.. حسنها وسيئها.

حرصت تلك البعثات لدى عودتها إلى ديار الإسلام، على تنبيه الأمة إلى أرضاع أحدثت شرخًا في كيان الأمة المسلمة، وخللاً أصاب الأمة في الصميم، ولا زالت آثاره حية وفاعلة في مجتمعاتنا حتى اليوم، لأنها تمخضت عنها انحرافات خلفت انحطاطًا وضلالاً في الفكر والأخلاق، وتولد عنها كل ما لا يتلائم مع دين الأمة وتاريخها وتراثها.

أبناء محمد علي

بعد وفاة محمد علي، واصل أبناؤه مسيرة الانفتاح على الغرب، واحتضنت فرنسا

حفيده عباس بن طوسون عام ١٨٤٨م ـ الذي انصرف إلى اللهو وأهمل شؤون البلاد ـ وكان لا يتحرك إلا بمشورة القنصل الفرنسي، وبعد مقتله خلفه عمه محمد سعيد بن محمد علي عام ١٨٥٤م والذي نجح صديقه فرديناند دي ليسبس ابن قنصل فرنسا في الأسكندرية في الحصول منه على امتياز حفر قناة السويس، والذي أرادت به فرنسا تدعيم نفوذها في مصر والبلاد المسلمة.

أسهم سعيد باشا كثيرًا في تدهور التعليم، لإيمانه العميق بأن الأمة الجاهلة أسلس قيادًا من الأمة المتعلمة.

بعد وفاة محمد سعيد باشا عام ١٨٦٣م، استُدْعِي إسماعيل بن إبراهيم من فرنسا ليتولى حكم مصر، وكان إسماعيل سفيهًا، تربى في فرنسا، وصاغته صالونات باريس، وذابت في صدره كل حرارة للإسلام، أراد أوربّة مصر وجعلها قطعة من أوروبا، فأسرف في بناء القصور، وإقامة التماثيل والحدائق والمسارح ودور الغناء، وأغرق مصر في الديون بعد أن أنفق الملايين في حفل افتتاح قناة السويس الذي دعا فيه ملوك أوروبا وأمرائها، واستقدم المغنيين والمغنيات واستأجر أشهر موسيقي أوروبا.

أقام إسماعيل باشا المحاكم المختلطة، والمحاكم الأهلية، التي كان أغلب قضاتها من الأجانب، يحكمون بشرائع فرنسية، نقلت عن القانون الفرنسي، هذه المحاكم التي امتد خطرها إلى السلطة التشريعية والقضائية، ونقلت الأمة من شريعة الإسلام إلى شرائع الكفار.

يقول الباحثون: "إن فترة حكم هذا الشاب السفيه ١٨٦٣-١٨٧٩م كانت من أخطر المراحل في تدمير الشخصية الإسلامية وإذابتها، وحل عروتها، وهدم شريعة الإسلام جملة هدمًا غير مسبوق في تاريخها. بل كان هذا الحاكم أول من تجرأ على هدمها بهذا القدر من الاستبدال والتأصيل والتثبيت لشرائع الكفار".

يذكر محمد طلعت حرب باشا ـ الاقتصادي المصري الشهير ـ أن إسماعيل باشا لما أراد أن ينفصل بمصر عن الدولة العثمانية، وعد ملوك أوروبا إن أيدوه من أجل تحقيق أهدافه، أن يبدل أحكام القرآن فيما يتصل بالحياة السياسية والحياة الاجتماعية، ويفصل الدين عن السياسة، ويطلق الحرية للنساء ولتسرن في أثر المرأة الأوروبية، وينقل إلى مصر معالم المدنية الغربية.

تلاقت رغبة حاكم مصر الخديو إسماعيل المبهور بالحضارة الغربية، برغبة أعداء الإسلام، فأنشأ مدرسة للحقوق على النمط الفرنسي، أصبحت فيما بعد مصدرًا رئيسيًا لتخريج أجيال من أبناء المسلمين مقطوعة الصلة بشريعة الإسلام.. كان المتفوقون والقادرون من خريجيها يستكملون دراستهم القانونية في جامعات فرنسا ومعاهدها، ويتتلمذون على أعلام القانون والتشريع فيها.. وكانت هذه المدرسة بحق من أكبر الوسائل الفكرية والعملية لتدعيم القانون الفرنسي الوافد والغريب على أمة الإسلام.

خرّجَت هذه المدرسة طبقة قانونية من أبناء المسلمين، حلوا محل الأجانب في دواوين القضاء والتشريع، ثم تطورت هذه المدرسة وأمثالها حتى أصبحت كليات جامعية، توسعوا في مناهجها، وترجموا لها أمهات الكتب القانونية، ثم جاء الطور الأخير، وأصبح التعليم والتدوين القانوني غربيًا بحتًا يستمد جذوره وأصوله وشروحه الفقهية من القوانين والمصادر الأجنبية عامة، والفرنسية خاصة. وغدت هذه الكليات تقذف المجتمع المسلم في كل عام بألوف من خريجيها، وفتحوا الطريق أمامهم ليحتلوا مراكز أساسية في حياة أممهم كالقضاء والنيابة والمحاماة ولجان التشريع، وأصبحوا طبقة جديدة متميزة في قلب الأمة العربية، تقوم حياتها وأفكارها وثقافتها على أساس غربي وافد يحاد الشريعة، ويقوم على أنقاضها مهما تزيىّ بالأزياء الوطنية.

قال الدكتور **عبدالحليم محمود شيخ الأزهر** -رحمه الله-: "إن الأمر قد وصل إلى أن صاغوا خريجي كليات الحقوق في العالم الإسلامي بحيث لا يفهمون بعد الليسانس كتابًا عربيًا في المواد التشريعية، وليس الأمر بغريب "إن جدول التدريس في كليات الحقوق يخصص عشرين محاضرة في الأسبوع للقوانين الأوروبية، ومحاضرتين فقط للشريعة الإسلامية.. أترى لو أنشأنا هذه الكليات في فرنسا وانجلترا كانت تفعل أكثر من ذلك !! هذه الكليات هي سر تخلفنا في التشريع".

لقد أقام الإسلام مجتمعاته على أسس أخلاقية سامية، وتولت الشريعة الإسلامية تحديد هذه الأخلاق وحمايتها بعقوبات مقدره نص عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة، واستقرت في المجتمع قرونًا طويلة تشكل أنماط السلوك للفرد والمجتمع، ثم يجيء القانون الوافد وتجيئ معه كل الموبقات الأوروبية، ليحل محل شريعة الله عز وجل، في ضبط حياة الأمم الإسلامية والسيطرة عليها وتوجيهها، وليهز أخلاقها من الأساس،

وليربط مصالح الناس الحيوية بشرائع الكفار التي أصبحت قوانين المجتمع.

ويصف المستشرق الإنجليزي (جب) هذا في كتابه وجهة الإسلام: "لقد أصبح المسلم العادي يجد أن الرجوع إلى الشريعة الإسلامية لا يغنيه شيئًا في كثير من مصاعب الحياة ومشكلاتها، ويجد نفسه خاضعًا لقانون مدني، قد لا يعلم له مصدرًا صحيحًا يستمد سلطانه منه، ولكن لا شك أن هذا القانون لا يستمد سلطانه من القرآن ولا من السنة الصحيحة".

هكذا أدت السياسة التغريبية التي انتهجتها أسرة محمد علي إلى ربط ـ قلب العالم الإسلامي وقبلته ـ بدائرة النفوذ الغربي، وتخريب الشخصية المسلمة التي اتجه ولاؤها إلى الغرب الصليبي، الذي أصبح اليوم قبلة الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية، بعد أن استدبروا تراثهم الأصيل وقرآنهم العظيم، وصاروا يعتزون ويفخرون بـ Savini و Austin، في الوقت الذي يخجلون ويجهلون أبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ومالك رضي الله عنهم.

وهكذا أدت سياسة محمد علي وبنوه إلى تدفق الأفكار والنظم الغربية النصرانية التي أدت إلى أبشع صور التخريب في كيان الأمة المسلمة، ودمرت الأسس التي كان يقوم عليها المجتمع لعصور طويلة.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المرأة المسلمة والسياسة التغريبية في التعليم والتربية

على الرغم من أن العَالم الأزهري ـ رفاعة الطهطاوي ـ الذي أوفده محمد علي باشا حاكم مصر في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، على رأس إحدى بعثاته التعليمية إلى فرنسا كان مؤمنًا بأن ضلالات الحضارة الغربية تخالف القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية، وأنه استنكر تشريعاتهم المختلفة، يبدو ذلك في مطلع كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" في قوله: "ومن المعلوم أني لا أستحسن إلا مالم يخالف الشريعة المحمدية"، وقوله: "ولا شك أن رسالة الرسل بالشرائع هي أصل التمدن الحقيقي الذي يُعتد به، ويُلتفت إليه، وأن الذي جاء به الإسلام من أصول الأحكام، هو الذي مدَّنَ بلاد الدنيا على الإطلاق، وانبعثت منه أنوار الهدى في سائر الآفاق".

فإنه قال ذلك نظريًا ولم يمارسه عمليًا، وسار في اتجاه معاكس، حيث آمن بأن التمدن الأوروبي لابد من نقله إلى ديار الإسلام، وأن لتحقيق التقدم لابد من توثيق العلاقات بين الإسلام والغرب وتعزيز الرابطة الفكرية والتشريعية مع الغرب النصراني، ويلحظ المرء ذلك من نقله للقوانين والتشريعات الفرنسية الوضعية إلى ديار الإسلام، وحرصه على التقريب بين الأصول الإسلامية والأصول الغربية، وتأكيده في كتاباته على أن تمدن فرنسا حقيقة لا جدال فيها حيث يقول:

"لا ينكر معارفها إلا مَن لا إنصاف عنده ولا معرفة له"، وأن ذلك التمدن "يجب أن يكون من باب أولى في ديار الإسلام، وبلاد شريعة النبي محمد ﷺ".

وفي الوقت نفسه حرص الطهطاوي على تنبيه الأمة المسلمة إلى أوضاع المرأة الأوروبية، ومدى ما وصلت إليه، مما أدى في النهاية إلى أن استقر في أذهان البعض أن المرأة الأوروبية هي الأنموذج الحضاري والمثالي الذي ينبغي أن تحتذيه كل امرأة متحضرة.

هذه العملية التغريبية الكبرى للمرأة المسلمة في الفكر والسلوك التي بذر بذورها رفاعة الطهطاوي، والتي أدت فيما بعد إلى انتزاعها من منبتها الإسلامي، وجعلها تعيش في مناخ لا يمت إلى الإسلام بصلة في كثير من أحواله، جعلت ـ مسيو جومار ـ المشرف الفرنسي على شؤون البعثة التعليمية المصرية يعلن مبتهجًا بالمنهج الذي آمن به الطهطاوي فيقول:

"فمن المنتظر أن الخرافات الشرقية ستنمحي من عقولهم، وأن الحجب الكثيفة التي تغطي أعين الشرقيين وتقيدهم بسلاسل الطفولة ستسقط تدريجيًا"

قاسم أمين (١٢٧٩-١٣٢٦هـ/ ١٨٦٣-١٩٠٨م)

تستمر السياسة التغريبية، وتمضي قُدُمًا البعثات التعليمية إلى بلاد الغرب الصليبي، ويُبْتَعَث قاسم أمين إلى فرنسا ليستكمل تعليمه العالي، بعد أن تخرج من مدرسة الحقوق المصرية ذات المناهج الفرنسية، وينحى منحى التبعية الحضارية لأوروبا في آرائه واجتهاداته، ويدعو بنفس الدعوة التي دعا بها من قبل رفاعة الطهطاوي، عند عودته من فرنسا، وهي إعادة بناء أوضاع المرأة المسلمة وفقًا للأنموذج الأوروبي.

وعلى الرغم من أن قاسم أمين قد أكد في كتاباته واعترف بأن الإسلام "لم يعق التطور في الفكر الإنساني في أي ظرف من الظروف، ولم يمنع إزدهار العلوم والفنون، والاكتشافات الرائعة التي ازدانت بها القرون الماضية، والجدل العظيم الذي ألهب العقول في تلك العصور"، "وأن الشرع الإسلامي قد سبق كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة للرجل، فأعلن حريتها واستقلالها، يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الأمم، وخولها كل حقوق الإنسان، واعتبرها كفاءة شرعية لا تنتقص عن كفاءة الرجل في جميع الأحوال المدنية، من بيع وشراء، وهبة ووصية، من غير أن يتوقف تصرفها على إذن أبيها أو زوجها، وهذه المزايا لم تصل إلى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات، وكلها تشهد على أن من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل".

وعلى الرغم أيضًا أنه اعترف بأن السبيل الحائر فيه المجتمع المسلم لا يكون إلا بالتربية القويمة "وأن أول أساس يقوم ، بناء التربية الشريفة هو الأساس الديني، وأن الدين للإنسان هو الشيء الوحيد الذي يمثل بين يدي كل نفس صورة الكمال الحقيقي، وأن الإسلام هو أمل الأمة في مستقبلها، وكما منحها القوة في الماضي فإنه قادر على أن يمنحها نفس القوة اليوم "وأن الإسلام الذي ظل طويلاً يمثل القوة في الماضي، والنور في العالم كله، ما يزال يملك ذخيرة ثقافية، وعظمة خلقية تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المحطومة، وأن يُعيد إيقاد الشعلات المنطفئة ".

على الرغم من مقولاته تلك كلها، نجد أنه يؤكد في نفس الوقت بأن طريق التقدم

والنهوض إنما يكون بتقليد أوروبا ومحاكاتها. وأنه لا يرى ثمة تعارضًا بين أن يُربى الناشئة على احترام الدين والإيمان به، وبين تربيتهم على احترام المدنية الأوربية، واحتقار المدنية الإسلامية وازدرائها، ورؤيتها مرضًا ينبغي التبرؤ منه.

يقول في كتابه (المصريون): "إن مصر تتحول إلى بلد أوروبي بطريقة تثير الدهشة، وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وآثارها، وشوارعها، وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها، وثيابها تتسم كلها بطابع أوروبي.. إنها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا أو تفعله..". لقد مضت في أثر حركة الحضارة الأوروبية التي تجتاح كل مكان، والتي تبدو استحالة مقاومتها، "إن في مصر قضاة ومحامين مستنيرين، يطبقون قانونًا منقولاً بالكامل من نابليون" يقول هذا على سبيل المفاخرة، ويؤكد على أن طريق التقدم والنهوض لا يكون إلا بتقليد أوروبا ومحاكاتها". فإذا تعلمت الأمة كما يتعلم مستعمروها، وسلكت في التربية مسالكهم، وأخذت في الأعمال مآخذهم، وتدرعت للكفاح بمثل ما تدرعوا به، أمكنها أن تعيش بجانبهم، بل يتيسر لها أن تسابقهم فتسبقهم".

في كتابه المرأة الجديدة

يرى أن المدنيّة الإسلامية داءًا ومرضًا "..ليس له من دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يعرفوا شؤون المدنية الغربية، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها".. وإذا أتى هذا الحين، ونرجوا ألا يكون بعيدًا.. انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس، وعرفنا قيمة التمدن الغربي".

عندما شاهد متحف اللوفر في باريس كتب يقول: "لعل أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المسلمة تأخرها في الفنون الجميلة.. التمثيل والتصوير والموسيقى. هذه الفنون ترمي جميعها إلى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الكمال والجمال، وإهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور".

وفي المقارنة بين وضع المرأة في المدنية الأوروبية ووضعها في المدنية الإسلامية يقول: "..فالاختلاف بيننا وبين الغربيين منشؤه أن الغربيين فهموا طبيعة الإنسان واحترموا شخصيته، فمنحوا المرأة ما منحوا أنفسهم من الحقوق في جميع ما يتعلق بالحياة الخاصة، ولم ينازعها أحد منهم في حق التمتع بحريتها".

ثم يُضيف قاسم أمين قائلاً: "ونحن لا نستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها، فليس خطؤها في ذلك أكبر من خطئها من كثير من الأمور الأخرى".

وفي المقارنة بين النظام الأسري في الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية يجد أن لا وجه للمقارنة إلا بين الفوضى الإسلامية والنظام الأوروبي، فيقول: "أين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التي وضعها الأوروبيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الأهلية؟ بل أين هي من القوانين اليونانية والرومانية التي لم تغفل في جميع أدوارها عن أهمية العائلة وشأنها في الهيئة الاجتماعية؟ فأي شأن من هذا يمكن أن يكون صالحًا لتحسين حالنا اليوم؟

أي أنه لم ير قاسم أمين في تاريخ التمدن الإسلامي سوى التخلف والضحالة، ويقول في موضع آخر: "ولا نر مانعًا من السير في تلك الطريق التي سبقتنا فيها الأمم الغربية، لأننا نشاهد أن الغربيين يظهر تقدمهم في المدنية يومًا بعد يوم، ونرى أن البلاد التي يتمتع فيها النساء بحريتهن وبجميع حقوقهن، هي التي تسير كالدليل أمام الأخرى، وتهديها في سبيل الكمال في المدينة". وفي حربه على الحجاب الإسلامي يقول:

"هل يظن المصريون أن رجال أوروبا مع أنهم بلغوا من كمال العقل والشعور مبلغًا مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على ما نشاهده بأعيننا، وأن تلك النفوس التي تخاطر في كل يوم بحياتها في طلب العلم والمعالي، وتُفضل الشرف على لذة الحياه، هل يظنون أن تلك العقول، وتلك النفوس التي نعجب بآثارها، يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها؟ هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا فيه خيرًا؟ كلا!".

ويعلق أحد الباحثين فيقول:

"ويسير على درب رفاعة الطهطاوي - الذي كان أول من لمس الحاجة إلى تربية المرأة متأثرًا بما شهد من أمر المرأة الأوروبية – آخرون قال عنهم النُقّاد أنهم خرجوا صراحة من حظيرة الإسلام، وأوردوا الأمة المسلمة موارد التهلكة.. فقدوا الثقة في نفوسهم فقد وَلَدَ لديهم حبوطًا مفزعًا، كان من هؤلاء النفر: محمد بن مصطفى ابن الخوجة الجزائري (١٢٨١هـ -١٨٦٥م/ ١٣٣٣هـ -١٩١٧م)، وقاسم أمين (١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م/ ١٣٢٦هـ -١٩٠٨م.) والطاهر الحداد التونسي (١٣١٧هـ-١٨٩٩م/ ١٣٥٣هـ-١٩٣٥م).

محمد بن الخوجة الجزائري

يشكو ابن الخوجة من نساء المسلمين، ويُثني ـ في مقابل ذلك ـ على نساء الإفرنج، ويرى أنهن قد أخذن بلباب المعارف وتغذين بها، وبالعلم الذي هو أكمل مُهَذِّب وأجلُ مُؤَدِّب لنفوس الأمم، ومُعَدِّل للطباع والشيم، وهذا ما حُرمت منه نساء المسلمين، بحيث أصبحن عاجزات عن مجاراتهم في أي ميدان، وبحيث بلغن من الجهل ما جعلهن كالبهائم السارحة والأنعام.

كان ابن الخوجة حريصًا على نشدان لعصرنة أو المدنية. ظهر ذلك واضحًا في كتابيه (الاكتراث في حقوق الإناث)، و(اللبـاب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب). وكان حريصًا على أن يتحرك في دائرة محمد عبده.

أما قاسم أمين ـ العائد من باريس والذي كان معاصرًا لابن الخوجة ـ فقد مر في أفكاره النسائية بمرحلتين، الأولى لم تستغرق أكثر من سنة واحدة هي السنة التي نشر فيها كتابه الأول (تحرير المرأة) عام ١٨٩٩م، أما المرحلة الثانية فقد جاءت في السنة التالية في كتابه (المرأة الجديدة) عام ١٩٠٠م.

التزم قاسم أمين في كتابه الأول إلى حد ما بالأحكام الدينية، والمقررات النصية التي يشتمل عليها الإسلام ـ رأى ذلك البعض ـ أما البعض الاخر فقد هب للرد عليه أمثال **شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه (قولي في المرأة)، ومحمد فريد وجدي في كتابه (المرأة المسلمة)، وطلعت باشا حرب في كتابيه (تربية المرأة والحجاب) و(القول الأخير في المرأة والحجاب) وغيرهم.**

يقول أحد المفكرين أنه لا شك أن قاسم أمين كان موقفه في (المرأة الجديدة) أضعف مما هو عليه في (تحرير المرأة)، وذلك بسبب خروجه من دائرة المعطيات الملموسة إلى دائرة التقريرات الحضارية والتمدنية التي لا يَسْهُل التأكد من حقيقتها، فضلاً عن التأكد من نتائجها، ثم أنه بتبنيه لإشكالية المرأة الغربية بحذافيرها ومفاهيم الحرية والتحرير قد سهل إصابته بسهام النقد.

يرى قاسم أمين في (تحرير المرأة) ص٨٠ أن الحجاب عادة عرضت على المسلمين من مخالطة بعض الأمم، فاستحسنوها وأخذوا بها، وبالغوا فيها، وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين، والدين منها براء.

إن المرأة التي تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها مما يوجب العار وهي مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والأجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة، فإن عفة هذه قهرية، أما عفة تلك فهي اختيارية، والفرق كبير بينهما.

إني لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة، والنساء على ماهن عليه اليوم، فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لا يتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب.. وإنما الذي أميل إليه هو إعداد نفوس البنات في زمن الصبا إلى هذا التغيير، فَيُعَوَّدْنَ بالتدريج الاستقلال، ويُودَع فيهنَّ الاعتقاد بأن العفة ملكة في النفس، لا في الثوب يختفي دونه الجسم، ثم يُعَوَّدنَ معاملة الرجال من أقارب وأجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية وأصول الأدب تحت ملاحظة أوليائهن، عند ذلك يَسْهُل عليهن الاستمرار في معاملة الرجال بدون أدنى خطر يترتب على ذلك، إلا في أحوال مستثناه لا تخلو منها محجبة ولا بادية![1].

أنكر قاسم أمين أن تكون المدنية الإسلامية نموذجًا للكمال البشري، وقلل من شأن الإسهامات الإنسانية لهذه المدنية، وأعلى من شأن المدنية الغربية على نحو لا يخلو من الشطط.. ربط إشكالية المرأة المسلمة بإشكالية المرأة الغربية، وبإشكالية المدنية الغربية.

أكد قاسم أمين على أن نربي أولادنا على أن يتعرفوا شؤون المرأة الغربية، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها، فإنه "من المستحيل أن يقع إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسسًا على العلوم العصرية الحديثة، وأن أحوال الإنسان مهما اختلفت وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم" ص١٨٥.

آمن قاسم أمين بواقعية التقدم أو الترقي كما يبدو في الغرب حيث تظهر روحه في جميع شؤون الأمة، في المسكن والمطعم والملبس والمباني والطرق والجمعيات والأفراح والمآتم وأساليب التعليم والتربية والتياترات والملاهي، وكذلك في العلوم والفنون، وفي جميع مظاهر الحياة العقلية والأدبية للأمة.

كما آمن بحق المرأة المسلمة في حرية الفكر والعمل تمامًا كنساء الغرب اللواتي يجابهن مشاكل عدة، ولا مانع في أن تمر النساء المسلمات في جميع الأدوار التي قطعتها

(١) قاسم أمين - تحرير المرأة ص١١٦.

النساء الغربيات.

ولقد انطوت أفكار قاسم أمين التحررية على ليبرالية مسرفة أدخلت المرأة المسلمة في متاهة يصعب التعرف على نهايتها.

إن الحضارة الغربية أصابت كلاً من الطهطاوي وقاسم أمين بفصام نفسي وحضاري، انتهى بتبعية حضارية وشعورية لأوروبا الكافرة.

باحثة البادية (ملك حفني ناصف)

وترد ملك حفني ناصف (١٣٠٤هـ/١٨٨٦م- ١٣٣٧هـ/١٩١٨م) على أفكار قاسم أمين ونزعته التغريبية فتقول إن من العسف إصلاح المرأة من خلال الطرائق والأساليب التي خبرتها المرأة الأوروبية في إطار التطور الذاتي للمدنية الغربية.. إن قضية المرأة المسلمة ليست في حاجة إلا إلى عملية نقد اجتماعي رصين للعادات والتقاليد، وإلى تربية المرأة وتعليمها، أما رد مسألة التأخر برمتها إلى قضية السفور والحجاب كما يريد المتفرنجة فأمر مجاف للصواب وللواقع.

اتخذت باحثة البادية موقفًا وسطًا بين التقليد والتغريب، أو بين الحجاب الشرعي أو السفور المقيد والسفور (بحيث لا يكون اختلاطًا يبعث على الشطط، ويقينا من الإفرنج، ولا حبسًا يضايق الجسم والعقل ويضيع المصلحة. وإذا أنا لمت المنادين بالسفور فلأنهم متسرعون يريدون أن يقلبوا الكون دفعة واحدة، ولا يتريثون لنيل بغيتهم بالتدريج، وأكثر هؤلاء من الشبان المتفرنجين الذين يرون كل شيء غربي حسنًا لمحض كونه غربيًا، ولم تُحَنِّكْهُمْ التجارب. وليعلموا أن الانتقال الفجائي من حال لضدها شديد الضرر، وخيم العاقبة، ولو اتبعوا الحكمة وسلكوا مسلك الحذر بأن ارتقوا لمذهبهم درجة فدرجة ما صعب الانتقال إليه، وما لقوا المعارضة التي لقوها. إن مذهبي هو تربية الفتيات على آداب الدين والفضيلة، وتخفيف وطأة الحجاب عنهن مادمن لم يتزوجن حتى يتسنى للشباب رؤيتهن.. أريد تعويد الناشئات السفور إلى الحد الذي يبيحه الدين الإسلامي الشريف بغير شطط في تأويل معناه.. أما الاختلاط الغربي بلا حد ولا قيد والجري وراء الخلاعة والتهتك فمما لا أوافق جماعة المتفرنجين عليه أصلاً. وكفى أنه مذموم عند أهله،

فما بالك عندنا.) [1].

كانت باحثة البادية ترضى بالسفور الغربي ولكن على المدى البعيد، وتتفق مع قاسم أمين في أن السفور والحجاب ليسا من المسائل التي يمكن إبرامها من يوم أو مقالة، وأنها ستحل من نفسها لأنها كالثمر لها إبان للنضج.

وهذا ما دعى شيخ الإسلام "مصطفى صبري" إلى وصف فكرة التبرج المموهة هذه بأنها لا تقل خطرًا في رأيه عن فكرة الانتقال الفجائي من حيث إن الفرق بينهما ليس في النهاية إلا فرقًا زمنيًا للانعتاق من الشريعة الإسلامية "إذ ليس التدرج في السفور ولا الاستعداد له إلا تدريجًا في المفسدة، وإلا استعدادًا لما يجر إليه".[2]

ويرى البعض أن "الباحثة" ربما كان لديها إحساسًا بأن خطر المدنية الغربية الداهم يمكن أن يبلغ في المستقبل درجة من التأثير، يَصْعب على المجتمع المصري الإسلامي أن يتغلب عليها، ويعسر على الحجاب مهما كانت صورته مقاومته طالما أن المجتمع عار من التربية الصالحة، والفضائل الدينية القوية الثابتة.

ويستدل البعض على ذلك من قولها بأن التقدم والتأخر للأمة ليسا مرهونين أو مرتبطين ارتباطًا عضويًا بمسألة الحجاب، وأن الربط بين المتقدم والسفور هو ربط مصطنع لا يخلو من قدر كبير من المبالغة والإسراف.

تقول "الباحثة": "فأما فريقهم الذين فتنتهم المدنية الغربية حتى خروا لها سُجّدًا، فتعليلهم لهذه المسألة من الغرابة بمكان. يقولون: إن الأمة متأخرة في الفنون الجميلة، متأخرة في الآداب القومية، متأخرة في كل شيء. نعم نحن نعترف معهم بذلك، ونسعى ونجد في إزالته، ولكن أليس من المدهش حقًا أن نعزو ذلك لتأخر الحجاب؟.. إن المسبحين بحمد أوروبا يعذرونهم في كل شر أتوه، وينظرون إلى كل شيء في وطنهم بعين المقت، ويعزون تأخر مصر الأدبي والمادي إلى النقاب؟ أترى لو كنا سافرات يوم ضرب الأسكندرية بالقنابل، أكان يرتد على أعقابهم المحتلون؟ وهل كان ينفع إشراق وجوهنا في تبرئة مظلومي دنشواي. قد يكون حجابنا مؤخرًا لنا بعض الشيء، ولكن لا

(١) آثار باحثة البادية (ملك حفني ناصف) ص٢١٨-٢٨٣ ـ المؤسسة المصرية العامة ـ مجدالدين حفني ناصف.

(٢) مصطفى صبري (شيخ الإسلام للدولة العثمانية) ـ قولي في المرأة ص٣٥ ـ المطبعة السلفية.

يصح أن ننسب كل تأخر له، وإلا فإن الأمم الغربية كلها سافرات فلماذا تجد إحداهن راقية جدًا والأخرى منحطة إلى الدرك الأسفل؟ إن تربية المرأة وحدها هو مدار فلاحها، وهو من أهم الأسباب لإعلاء شأن أمتها، ولا دخل لزيها في ذلك الإعلاء. ألم تكن نساء الأتراك المتنقبات أمهات الأتراك الأحرار الذين هزوا قلب العالم؟ نعم كن متنقبات ولكن تربيتهن غير تربيتنا.. فالمرأة لها أكبر يد في ترقية الأمم أو تأخرها، ولكن المدار على تربيتها النفسية والعقلية والجسمية، أما التنقيب والسفور فلا يعدمان أثرًا في تكوين أخلاق الأمة، ولكنهما ليسا كل شيء.. فتربية المرأة لا سفورها إذن هو الذي له الدخل الأكبر في تقدم الأمة. وبديهي أن الحجاب الشرعي إذا كان مدعومًا بالأخلاق لا يمكن أن يقف عائقًا في وجه التربية." (١)

نظيرة زين الدين

رحلت باحثة البادية في عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م، وجاءت نظيرة زين الدين عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م من بلاد الشام لتنشر كتابًا تدافع فيه عن حقوق المرأة، وبصورة خاصة عن حقها الشرعي والعقلي في السفور (السفور والحجاب).

ذهبت نظيرة زين الدين في هذا الكتاب إلى أن "الحجاب يورث نصف الأمة الشلل"، وأنه يحول دون تفوق الأمة وتقدمها، واعتبرت أن الوصول إلى أعلى سلم التقدم لا يكون إلا بالصعود درجة درجة، وأن أول درجة من سلم الرقي هو السفور.

أكدت نظيرة زين الدين أن الشرع والدين يقفان إلى جانبها.. لقد تابعت قاسم أمين في التقليل من شأن المدنية الإسلامية قائلة: إن الأمم التي نبذت الحجاب أمم راقية في العقل والمادة رقيًا ليس للأمم المتحجبة مثله. فالأمم السافرة هي التي اكتشفت بالبحث والتنقيب أسرار الطبيعة، وسخرت لإرادتها العناصر. أما الأمم المتحجبة فلم تكتشف سرًا، ولم تسخر لإرادتها عنصرًا، وإنما تتغني بمجد مضى، وتقليد لها قديم، مستنيمة بذلك الغناء على الجمود".

(١) آثار باحثة البادية ص٢٧٥-٢٧٨.

الطاهر الحداد

وفي تونس جاء الطاهر الحداد (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م- ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م) ليتابع مسيرة ابن الخواجة وقاسم أمين وباحثة البادية ونظيرة زين الدين وهدى شعراوي.

تخطى الحداد من سبقوه على الدرب، ودفع دعاواه إلى حدود رأى بعض نقاده على أنها تخرجه صراحة من حظيرة الإسلام.

أصدر الحداد كتابه (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) عام ١٩٣٠م. أكد فيه أن الإسلام ليس هو المسؤول عن المصير البائس الذي انتهت إليه المرأة في المجتمع الإسلامي، وأن المسلمين أنفسهم ـ والفقهاء منهم خاصة ـ هم الذين يتحملون تبعة هذا البؤس، وذلك بسبب إنكارهم لقانون التغير الاجتماعي، ولضرورة التوفيق بين الشريعة والظروف المستجدة ـ وهو توفيق أثبته القرآن نفسه ـ وبسبب تعطيلهم لحركة الفقه الإسلامي تعطيلا قتل الحرف منه الروح، وألقى في قلوب الفقهاء أنفسهم حب الراحة، وخشية القلق، وشل عندهم كل استجابة للظروف المستجدة، وحبب إليهم الاختباء وراء الخطر المزعوم لكل محاولة اجتهاد جديدة.

قرر الطاهر الحداد أن أحكام الشريعة الثابتة ينبغي أن تتغير بتغير الظروف والمجتمع، ورأى أن الأحكام المتعلقة بالمرأة هي مما يمكن أن يغير ويبدل، وبأنه لا مانع نظرًا لتغير الظروف من تغيير نظام الإرث، ومن الاستبدال بعقوبة الزنا عقوبات وإجراءات جديدة، ومن حظر تعدد الزوجات.

كان هذا إبطالاً لأحكام القرآن القطعية الاجتماعية، وهدمًا لروح الدين الإسلامي، وجحودًا لبعض القرآن معادلاً للكفر به كله.

ولهذا رأى علماء تونس أمثال محمد الصالح بن مراد، وعمر البري المدني في الطاهر الحداد فردًا من شيعة طه حسين وسلامه موسى وأضرابهما من رؤسائهما الملحدين المستنيرين بدعوى التجديد والإصلاح.

الخلاصة

كانت هذه بعض معالم السياسة التغريبية التي أدت إلى تبعية حضارية وشعورية لأوروبا النصرانية، وأربكت العقل الإسلامي المعاصر، وشتت وعيه.

إن الإسلام لم يحذر من شيء قدر تحذيره من التبعية والتقليد لأعدائه، لأن للإسلام منهجه الأصيل، ونظرته الواضحة لكل أمر من أمور الحياة.

تحولت قضية المرأة المسلمة بسبب السياسة التغريبية التعليمية إلى مؤامرة رهيبة على البيت المسلم استهدفت تدميره من الأساس، وتحويل مساره إلى وجهة مضادة لم تحدث قط في تاريخ المسلمين، حتى في أشد فترات ضعفهم.

كانت أوضاع المرأة المسلمة في ديار الإسلام سيئة، وكانت تحتاج إلى التعليم والثقافة والدراسة.. وكما هو معلوم فإن تعليم المرأة أمر يحض عليه الإسلام، وهو واجب إسلامي، وفريضة إسلامية، ولكن بشرط ألا يكون مرتبطاً بالدعوة إلى التبرج والسفور، ونزع الحجاب، وبشرط ألا تختلط المرأة بالرجل، والفتيات بالفتيان في دور العلم، وألا تتأسى بأنموذج المرأة في ديار الغرب أو الشرق، بل تتأسى وتستلهم سيرة أمهات المؤمنين، ونساء الصدر الأول الأطهر، وتدرس كتاب ربها، وسنة نبيها ﷺ، لتعرف حقوقها وواجباتها، ودورها في خلافة الله في الأرض.

لقد بدأ الخلل محدودًا، ثم بدأ الخرق يتسع تبعًا لسياسة التغريب التعليمية، واتسع الانحراف يومًا بعد يوم.. كانت هذه السياسة وما جرته على التعليم من خلل نهضوي شرًا ووبالاً أوردت الأمة المسلمة موارد التهلكة، وأحلتها دار البوار، وأصابها في مقتل.

إن المجتمعات المسلمة تتميز بتكوين ديني وحضاري يختلف عن غيره من المجتمعات، ولقد علمنا الإسلام أن نقف من أنماط الفكر الوافدة على مجتمعاتنا موقف التعرف الصحيح عليها في ضوء قيمنا الإسلامية الصحيحة، لنأخذ منها النافع والضروري والإيجابي.

إن ثبات القيم في الإسلام لا يحول دون تلقي أحدث معطيات العصر في العلم والفكر والمعرفة، واستيعابها والترقي بها في مختلف مجالات النهضة والتقدم.

الإنجليز وتخريب التعليم في مصر

حين دخل الإنجليز مصر عام ١٨٢٢م حصروا جهودهم في صرف الناس عن التمسك بالإسلام، وكانت عنايتهم بإفساد الإسلام في مصر ـ أو بعبارة أخرى محاولة إخراج الشعب المصري من الإسلام ـ عناية شديدة، بذلوا في سبيل تحقيقها جهودًا كثيرة.

وقف جلادستون رئيس الوزارة البريطانية يومئذ في مجلس العموم البريطاني يقول مشيرًا إلى المصحف الشريف: "طالما هذا الكتاب في أيدي المصريين فلن يقر لنا قرار في هذه البلاد".

اهتم النصارى بمصر بالذات، وبالقضاء على الإسلام فيها بسبب مركزها الحيوي والمؤثر في قلب العالم الإسلامي، وبالذات بسبب وجود الأزهر الشريف فيها، مما جعلها دومًا مركز الإشعاع الروحي والثقافي للعالم الإسلامي كله.

اللورد كرومر والقس دنلوب

عين الإنجليز ـ اللورد كرومر ـ أول معتمد بريطاني في مصر، فسعى إلى تحقيق جميع أهداف المخطط الصليبي.

وضع كرومر سياسة تعليمية تهدف إلى القضاء على التعليم الإسلامي، وإبعاد المجتمع المصري عن كل ما هو عربي وإسلامي.. يقول المستشرق الألماني كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٧١٤: "إن أبرز ما تلام عليه إدارة اللورد كرومر لومًا كبيرًا، أنها لم ترصد غير اعتمادات هزيلة جدًا لتعليم الشعب، في حين خصصت أموالاً ضخمة للإنشاءات التي تنطوي على خدمة المصالح البريطانية، فمن سنة ١٨٨٢م إلى سنة ١٩٠٢م لم تبلغ الاعتمادات الخاصة بالتعليم نصف نفقات خزان أسوان.. وقد حاول خلفه اللورد لويد Loyed أن يلتمس له العذر فأشار إلى فقدان الوسائل الضرورية لذلك قائلاً: إنه لم يكن من هم للدولة المحتلة على كل حال إلا أن تفرض الثقافة البريطانية على البلاد، وليس من شك في أن هذه الثقافة ما كانت لتفيد المصريين إلا قليلاً.. ولكنها كانت خليقة بأن تخدم مصالح البريطانيين وتعزز ثقافتهم..".

عهد اللورد كرومر إلى القسيس دنلوب، بعد أن عينه مستشارًا لوزارة المعارف

المصرية، تنفيذ سياسة تعليمية يكون هدفها الأخير إبعاد المتعلمين عن الإسلام، وتعذيتهم بالأفكار المناهضة للمفاهيم الإسلامية، وتغذيتهم بروح الولاء للاستعمار البريطاني، وتربيتهم على السلوك الغربي القائم على التحلل من الضوابط الدينية، وتخريج أجيال تتقبل الأنظمة التي تزينها لها الدوائر الاستعمارية أو تفرضها عليها.

انتهج الإنجليز أسلوبًا بطيئًا باردًا في تحويل الناس عن الإسلام، وكان كرومر في صليبيته لا يقل عن نابليون، ولا يقل أيضًا في مقته للأزهر الشريف عنه، ولكنه اتبع أسلوبًا مغايرًا، حرص فيه أن يأتي بالنتائج المطلوبة دون أن يتيقظ فيه الشعب المصري إلى التغيير. يقول كرومر موضحًا سياسته: "إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد هي تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن، بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس، وإن كان من الواجب ـ منعًا من إثارة الشكوك ـ ألا يعمل على تنصير المسلمين، وأن يرعى من منصبه الرسمي المظاهر الزائفة للدين الإسلامي، كالاحتفالات الدينية وماشابه ذلك".

لقد زعم اللورد كرومر بأن الإسلام كان سببًا للانحطاط الذي أصاب العرب والمسلمين في التاريخ، وأن الدين والمدنية ضدان، وأن من تمسك بأصول الدين فقد بَعُدَ عن التمدن والتحضر، لأن الدين عقبة في طريق التقدم، وعقبة في سبيل ترقي الأمم، وأن أية أمة تريد النهوض إلى المجد والارتفاع إلى العلا فعليها ترك الدين السماوي والتمسك بدين المدنية الحديثة، وأقرب دليل على ذلك هو فرنسا، تلك الدولة التي لم تبلغ ما بلغته إلا بعد أن نبذت الدين ظهريًا، ونفت رجاله من بلادها.

وفي موضع آخر يقول: "إن القرآن هو العقبة الكؤود في سبيل ارتقاء الأمم الإسلامية، والمسؤول عن تقهقرها، وأن المسيحية هي سبب الترقي المسيحي الأوروبي.

كانت تقارير كرومر في التعليم تؤكد على أن التعليم الذي يلقن في المدارس لا يجعل المصريين أكثر كفاءة للحكم الذاتي التام ما لم يُقرن ببعض الانقلاب والتغيير في أخلاق الأمة وسجاياها، وهذا الأمر لابد أن يكون السير فيه بطيئًا.

تدمير الأزهر الشريف

حين بدأ كرومر حكمه في مصر، بدأ يُخطط لتدمير الأزهر الشريف، وتجميد

التعليم الديني، وإنماء التعليم العلماني اللاديني، ذلك لأن الأزهر هو الذي قاد معظم الثورات الشعبية ضد المستبدين الطغاة، والمستعمرين الغزاة.

لذلك أعلن كرومر قائلاً: "لو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله لكانت خطوة جريئة جليلة الخطر، ولكن إذا بدأ هذا الأمر غير متيسر تحقيقه، يُصبح الأمل محصوراً في إصلاح التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر".

رفع الإنجليز شأن المدارس والجامعات العلمانية، وحجبوا رجال الأزهر، وجعلوا المناصب الكبرى في رجال وزارة المعارف، وقصروا الأزهر على الوعظ، ونجحوا في إنشاء نظام تعليمي مواز للأزهر له الطابع الغربي، تُشرف عليه وزارة المعارف لعزل الأجيال ثقافيًا ونفسيًا عن الإسلام.

اللغة العربية والتربية الإسلامية

قام الاستعمار الانجليزي بإغلاق المدارس، واتخذ من مديونية مصر سببًا لمناهضة التعليم الوطني، وحصر التعليم في أضيق نطاق، ثم صبغه بالصبغة الإنجليزية، فأصبحت اللغة الإنجليزية هي لغة التدريس، متجاهلة المواد القومية الوطنية، والمواد الدينية، وكل ماله صلة بالإسلام.

بدأ القسيس دنلوب بضرب اللغة العربية ومناهج اللغة العربية، لغة القرآن الذي يحترق قلب الصليبيين حقدًا عليه، فجعل مدرس اللغة العربية في وضع مهين، يتقدمه سائر المعلمين في الراتب والتقدير والمكانة الاجتماعية، وموضع ازدراء وسخرية، مما جعل اللغة العربية موضع نفور من الجميع، بعد أن صار الناس يتحدثون عن جهل معلمي اللغة العربية، وتخلفهم وفقرهم، وانحطاط مستواهم الاجتماعي والفكري.

كما أصبح العناية والاهتمام باللغة العربية وآدابها غير واجبة، في الوقت الذي حازت فيه اللغة الإنجليزية كل العناية والاهتمام، ولم تعد اللغة العربية موضع اعتزاز بالنسبة لأبنائها كما كانت طيلة ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، وبدأ الدارسون لها يشكون من صعوبتها، ويتجهون إلى دراسة آداب اللغات الأخرى بعد أن هجروها، وأصبح دانتي وشكسبير، وفيكتور هوجو وأندريه جيد، وأناتول فرانس مثار إعجاب المثقفين المصريين، بدلاً من البُحتري والمتنبي وامرؤ القيس.

وهكذا نجح القس دنلوب في صرف الناس عن لغة القرآن، وصرف الأمة عن تراثها الخالد.

وفي التربية الإسلامية والمواد الدينية، كانت دروس التربية الإسلامية والعلوم الإسلامية في سياسة دنلوب أشد سوءًا، يقوم بتدريسها أكبر المدرسين سنًا، ليقترن درس الدين في نفوس الطلاب بالعجز والفناء والضيق والضجر والرغبة في الانفلات، ولما كان درس الدين يُقدم للطلاب في نهاية اليوم الدراسي، فقد أصبح عديم الأثر والجدوى، في الوقت الذي كان درس الدين المسيحي يُدرس في الصباح الباكر في كنيسة المدرسة، في جو تسود فيه الفرحة والبهجة بين الطلاب النصارى.

كما أصبح الدين الإسلامي يُدرَّس كمجوعة من النصوص تُلقَى لتُحفظ حفظًا وتُستظهر بلا حركة ولا حياة ولا روح، ولهذا أصبح درس الدين ميتًا في طريقة تدريسه، ولأنه يدرس على الطريقة الغربية التي فصلت الدين عن العلم، وفصلته عن الحياه، ونجح دنلوب في جعل الدين الإسلامي مادة هامشية في حس الطلاب، ليس لها اعتبار في تربية أجيال الأمة.

التاريخ الإسلامي

حرص المستشار الإنجليزي لوزارة المعارف المصرية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ـ القس دنلوب ـ على فصل الأجيال المسلمة عن تراثها الحق، وتاريخها ، روحيًا وذهنيًا، بطمس أمجاد الإسلام والمسلمين، وإخفاء الحركة العلمية الإسلامية الهائلة التي نشرت نورها في الأرض، وتعلمت منها أوروبا حين بدأت نهضتها الحديثة نتيجة احتكاكها بالمسلمين رغم عداوتها للإسلام، ومحاربتها للمسلمين.

وفي الوقت الذي حرصت فيه سياسة ـ دنلوب ـ التعليمية على توجيه الطلاب إلى أوروبا على أنها هي العلم والحضارة، وهي الديموقراطية وحقوق الإنسان، والتقدم الصناعي، أخفت على الطلاب الاستعمار الأوربي وفظائعه وسوآته، واستعباده الأحرار، ونبذه الدين عن كل مجالات الحياه، ونشره الفساد في الأرض، وإتلافه كل القيم الفاضلة التي يعيش عليها الإنسان، وأيضًا البواعث الصليبية التي حركت أوروبا نحو العالم الإسلامي.

ركز دنلوب على أن التاريخ الإسلامي هو التاريخ السياسي للمسلمين، وأن بدايته تبدأ من حقبة ما بعد البعثة المحمدية، فجرده من محتواه الشامل، محتواه العقدي والفكري والحضاري والعلمي والاجتماعي، وحصره في النزاعات السياسية بين الحكام ومؤامرات القتل والاغتيال، ودس السم والفتك بالسياسيين، وهو يعلم أن الجانب السياسي من تاريخ المسلمين هو أسوأ ما في تاريخهم، وأنه كان خطًا أسود في صفحة يغلب عليها البياض.

تناسى دنلوب أن التاريخ الإسلامي هو تاريخ دين وعقيدة، قبل أن يكون تاريخ دول وكيانات ومعارك ونظم سياسية، وأنه دراسة قبل كل شيء في أحوال الإنسان وحركته على هذه الأرض، ومعاملاته مع الحق سبحانه وتعالى، ومدى استقامته أو انحرافه عن المنهج الرباني الذي جاءت به الرسل صلوات الله عليهم، وأيضًا تفاعله مع الكون من حوله، ومدى استفادته مما سُخر الله له من المخلوقات، وما أعطاه من المواهب والقدرات.

حرص دنلوب على أن تُكتب موضوعات التاريخ لأبناء الأمة الإسلامية وفق منظورات ومناهج غير إسلامية، لا تعرض فيه الموضوعات وفق منهج علمي صحيح منبثق من التصور الإسلامي والعقيدة الصحيحة عن الله والكون والإنسان والحياة. ويتناسى فيه دور أنبياء الله ورُسُله صلوات الله عليهم.

فصل دنلوب بين الدراسات الشرعية والدراسات التاريخية في مناهج التعليم، فنشأت الأجيال من خريجي الجامعات، وأساتذة التاريخ، وهم لا يشعرون بأية صلة تربط التاريخ بأحكام الإسلام، وتفصل بين الدين والحياة، فكانت الهزيمة الروحية أمام الحضارة الغربية، وعدم الاعتزاز بالإسلام، وعدم تحقيق مفهوم الولاء والبراء. وهكذا قُدِّمَ التاريخ الإسلامي، وكذلك التاريخ الأوروبي بصورة مشوهة وكاذبة، وكانت هذه بعض ملامح سياسة دنلوب التعليمية، والتي مازالت سارية المفعول تنخر في جسد الأمة.

كان التعليم في مصر قبل الاحتلال البريطاني والغزو الصليبي، إسلاميّ في أساسه، يتمثل في الأزهر الشريف ومعاهده الدينية، وكان الانتساب إلى الأزهر شرفًا تتسابق إليه الأسر المصرية. وكان دنلوب أداة النفوذ الأجنبي في تغيير التعليم من أسلوبه الإسلامي إلى الأسلوب العلماني الذي مازال ساريًا مع العالم الإسلامي إلى اليوم.

سياسة دنلوب التعليمية في بلدان المسلمين

تختلف دول الغرب الصليبي فيما بينها اختلافًا قد يصل إلى حروب طاحنة فيما بينها، في الوقت الذي يكون فيه اتفاقهم كاملاً وموحدًا ضد الإسلام والمسلمين، لذا كانت مخططاتهم ومؤامراتهم متشابهة في بلدان العالم الإسلامي.

في الهند

فتح المسلمون الهند وانتشر بها الإسلام، وتطورت الحوادث، وجاء الإنجليز إلى شبه القارة الهندية وشددوا حكمهم للبلاد، وشعروا بصعوبة مراس هذه الأمة، فحاربوا المسلمين، وعملوا على إضعافهم، وصرحوا بعداوتهم للمسلمين، صرح لورد ألنبرو Ellenborough قائلاً:

> ليس في وسعي أن أغمض عيني عن اليقين بأن هذا العنصر الإسلامي عدو أصيل العداوة لنا، وأن سياستنا الحقة ينبغي أن تتجه إلى تقريب الهنديين".

وجهر لورد إلفنستون Elphinstone في سنة ١٨٥٨م بوجوب التفرقة بين المسلمين والهنديين في إدارة البلاد.

حرص الإنجليز على إضعاف المسلمين، بأن جعلوهم أجراء في الأرض بعد أن كانوا مُلاكًا، وحرموهم من الوظائف، وعزلوا بين المسلمين وغيرهم في الحياة الاجتماعية [١].

زاد الإنجليز المسلمين ضعفًا بأن حرموهم من وسائل التعليم، وعملوا على إعداد جيل من المسلمين يخدمون في دور الحكومة، فأقاموا المدارس التي درسوا فيها في البداية العلوم الإسلامية التقليدية، ثم سرعان ما فتحوا فيها أقسام اللغة الإنجليزية والأنجلو عربية، ثم خططوا للقضاء على تأثير علماء المسلمين ومراكز نفوذهم، من أجل تنشئة الأجيال تنشئة علمانية معادية للدين الإسلامي.

أغلق الإنجليز المدارس الإسلامية، وأوقفوا تعليم العلوم الإسلامية، وحلت اللغة الإنجليزية، وكان اللورد (ماكولي) هو العقل المدبر وراء إدخال التربية الحديثة، وإبعاد

(١) انظر عباس محمود العقاد ـ الإسلام في القرن العشرين ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٦٠-٦١.

التعليم الإسلامي بمختلف الوسائل، وقد أعرب عن أهدافه من إدخال التربية الحديثة في شبه القارة الهندية عام ١٨٣٢ م بقوله: "إن ما كان يقصد إليه لم يتعد خلق طبقة من الناس هنود في لونهم، إنجليز في أفكارهم واتجاهاتهم"، لذلك أدى التعليم العلماني إلى تخريج العلمانيين المتغربين الذين اتجه ولاؤهم للغرب.

في السودان

اتخذ الاستعمار البريطاني ما اتخذه في مصر، فأغلق المعاهد الدينية القديمة، إلى الحد الذي تم فيه شنق اثنين من القادة الدينيين على مشهد من الناس أحدهما في شمال السودان والثاني من وسطه.

في الجزائر

قام الاستعمار الفرنسي بفرض التعليم الفرنسي، لجعل الجزائر جزءًا من فرنسا، وإبعاد المجتمع الجزائري عن كل ما هو إسلامي وعربي، فانخفض عدد الطلاب من ١٥٠ ألفًا عند بدء الاحتلال عام ١٨٢٧م إلى بضعة آلاف، في الوقت الذي ارتفع فيه عدد الطلاب المستوطنين إلى أكثر من ربع مليون طالب، وتم حصر الوظائف الهامة فيمن أتقن الفرنسية بدلاً من العربية.

في المملكة المغربية

جعلت فرنسا التعليم في المغرب علمانيًا يهدف إلى تربية الولاء الكامل لفرنسا في أبناء الشعب المغربي المسلم، ويتحلل من ولائه لدينه وقومه، وبمقتضى السيطرة على التعليم تأسست مدارس أبناء الأعيان في الحضر، ومدارس أبناء الفلاحين في البوادي، يتعلم فيها الأطفال الفرنسية أولاً.

أما الدروس المخصصة للغة العربية والقرآن الكريم فهي لا تتعدى السدس إضعافًا لها، ويتولى التعليم في هذه المدارس معلمون فرنسيون، وأقلية ضئيلة من المغاربة.

في سوريا

وجهت فرنسا سياسة التعليم وفق أهدافها التي ترمي إلى سلخ أبناء المسلمين من دينهم عقيدة وسلوكًا، وتغريبهم فكرًا وعملاً وعاطفة، وتغذية الولاء في نفوسهم للدولة

الاستعمارية والشعب الفرنسي، وإحلال المذاهب الفكرية المعاصرة المناقضة للدين محل العقائد والمفاهيم والأخلاق والنظم الفرنسية.

لقد طبقت سياسة دنلوب التعليمية بشكل أو آخر، ووضعت برامج التعليم في المدارس والجامعات من المغرب العربي حتى جاوء في الشرق، تستهدف مسخ التعليم الديني وفصل الدين عن الدولة وسائر مناحي الحياة. ومحاربة المدارس والجامعات الدينية وعلى رأسها الأزهر الشريف، وصبغ التعليم بالصبغة الغربية، وأصبح تاريخ بريطانيا وفرنسا وأميركا ينال من الحصص الدراسية أكثر من تاريخ العروبة والإسلام، وتساوت حصص اللغة الأجنبية بحصص اللغة العربية، وتقلصت حصص الدروس الدينية إلى شيء رمزي لايسمن ولا يغني من جوع، وصدق رأي المبشر تكلى الذي قال: يجب أن نشجع إنشاء المدارس، وأن نشجع - على الأخص - التعليم الغربي. إن كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حتمًا تعلم اللغة الإنجليزية[1].

كانت عملية تطويع مناهج التعليم في بلدان العالم الإسلامي، تبعًا للمناهج الغربية بمثابة الخنجر المسموم الذي طُعنت به الأمة الإسلامية.

هناك خلاف عميق بين أصول التاريخ الغربي ومقوماته، التي ترجع في أصولها إلى مفاهيم الوثنية اليونانية والعبودية والتفسيرات النصرانية، والتاريخ الإسلامي الذي يقوم على أساس عقيدة التوحيد والنبوة والبعث ومسئولية الإنسان والتزامه، ومفاهيم الإخاء الإنساني والعدل والرحمة، في إطار المنهج الذي قدمه القرآن الكريم.

سعد زغلول باشا وتخريب التعليم

منذ أن وطئت قدم الاستعمار الإنجليزي أرض مصر المسلمة، وجد نفسه أنه مهما أوتي من قوة وبطش، فلن يستطيع أن يقف بمفرده وسط هذا الشعب المسلم الذي يفرض عليه دينه عقيدة الجهاد ضد المحتل لبلاده. لذلك فكر اللورد كرومر المفتمث البريطاني في مصر - لتثبيت إقامته وتركيز دعائمه - في بناء زعامات تستجيب له ولنظامه السياسي.

أسند اللورد كرومر إلى سعد زغلول، نظارة المعارف العمومية (وزارة التعليم)

(١) انظر د. عمر فروخ، مصطفى الخالدي - التبشير والاستعمار ص٧٠.

عام ١٩٠٦م، وكان سعد زغلول أحد النماذج الذين تتلمذوا على يد السيد جمال الدين الأفغاني، الذي كان يرى أن لا تجديد، ولا تقدم في الإسلام، إلا بعد الأخذ بالتعليم العصري المجرد عن التعليم الديني، أي أن يتعلم المسلم والنصراني واليهودي علومًا واحدة تخدم الوطن، وتدعو إلى الوحدة الوطنية ونبذ الخلاف المذهبي والطائفي.. وعلى حد قوله تعليمًا وطنيًا يكون بدايته الوطن، ووسطه الوطن، وغايته الوطن.[١]

يروي تشارلز آدم في كتابه " الإسلام والتجديد في مصر" ص٢١٩:

"إن سلطات الاحتلال البريطاني قد اختارت سعد زغلول لهذا المنصب، وهو من حزب الأمة العميل لها لكي يقضي على روح الثورة التي نشرها الزعيم - مصطفى كامل - بتهييجه المتواصل بين تلاميذ المدارس، وكان قد عظم تأثيرها في نفوس الطلاب، وانتشرت بينهم انتشارًا سريعًا، وأصبح الإخلاد إلى النظام في المدارس من الأمور المستعصية"، ويضيف آدمز: "وبذل سعد زغلول جهدًا عظيمًا في هذا السبيل"، أي في التصدي للانتفاضات الطلابية ضد الإنجليز وإجهاضها.

صار سعد زغلول حربًا على الحركة الوطنية منذ اليوم الأول الذي تولى فيه الوزارة، فقام بما يثبت أقدامه في التيار الاستعماري، وليثبت لكرومر أنه جدير بقيادة الحركة الفكرية والتعليمية في البلاد كما يريدها المستعمر، فقدم الزعيم محمد فريد إلى المحاكمة الوطنية، وانسحب من مشروع الجامعة، وحَوّل مفهوم الوطنية في العالم الإسلامي من صيغته الإسلامية ومفهوم الجهاد، إلى المفهوم الغربي القائم على الصداقة مع الإنجليز [٢].

كتب اللورد كرومر في تقريره المقدم للبرلمان الإنجليزي عام ١٩٠٦م واصفًا سعد زغلول "بأنه تخرج من مدرسة الشيخ محمد عبده، والتي يقوم برنامجها على التعاون مع الأوروبيين، لا معارضتهم في إدخال المدنية الأوروبية إلى بلادهم..".

ويُضيف كرومر قائلاً: "إن اختيار سعد لمنصب وزيرًا للمعارف ليس إلا تنفيذًا لسياسة ترمي إلى تأييد هذه المدرسة، ووضع مقاليد السلطة في يدها". ثم يقول بعد ذلك:

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٤٥.
(٢) د. حمد الجمال - اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر ص٤٠٤-٤٠٥.

"وسوف نراقب ما ستتمخض عنه هذه التجربة من آثار في عناية وانتباه.. إن العمل يسير بجد ونشاط في إدخال المدنية الغربية إلى مصر، وهو مايأخذ طريقه بتقدم ونجاح في كل إدارة من إدارات البلاد حسب خطة مرسومة، وُضعت خطوطها بعد دراسة الموقف تقوم على التطور والتدرج" (١).

يقول المفكر الإسلامي محمد قطب: لم يسع سعد زغلول إلى تخفيف العبن الذي وقع على الأزهر وخريجيه، والظلم الذي وقع على معلم اللغة العربية ومعلم الدين ومعلم التاريخ، ولم يسع إلى تصحيح منهج التاريخ الذي يُخرج طلابًا لا يعتزون بتاريخهم، ويشبون على الانسلاخ من الإسلام والزوبان في الغرب.

قام سعد زغلول بفصل الأدب العربي عن الفكر الإسلامي، وبدأ الفكر العربي يسير وراء الفكر الغربي العلماني، يمجد أنظمته رحياته الاجتماعية، وسلوك معيشته،وتبنت الحركة الأدبية مفاهيم الأدب الإنجليزي، والإعجاب بالحضارة الغربية واحتضانها في جميع المجالات.

وعندما عاد سعد زغلول من المنفى، جاء ليحول ثورة الشعب المصري من ثورة دينية إلى ثورة وطنية، وليقول بعد فشل المفاوضات مُع الإنجليز: لقد كسبنا صداقة الإنجليز.. الإنجليز خصوم شرفاء معقولون! .

عندما احتلت بريطانيا مصر، واجهت الحركة الوطنية التي قاومت النفوذ الأجنبي بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد، وعدد من المجاهدين الذي عملت القوة البريطانية على تصفيتهم وإقصائهم، وتقديم جيل جديد من أصحاب الولاء للنفوذ البريطاني، وفي مقدمة هؤلاء أحمد لطفي السيد، وسعد زغلول، وعبدالعزيز فهمي.

لقد عارض سعد الحركة الوطنية في البلاد، بعد أن نجح الإنجليز في صياغته من جديد.. حَاكَمَ الزعماء والكتّاب والصحفيين الوطنيين بأقسى العقوبات، بعد أن فقد حساسيته تجاه الإسلام والمسلمين، ولم يضعه كرومر لينفذ المنهج الدنلوبي في التعليم إلا بعد أن اطمأن إلى تهذيبه وتشذيبه.

يقول سعد باشا عن اللورد كرومر:

(١) د. محمد محمد حسين ـ حصوننا مهددة من داخلها ـ مطبعة الرسالة ـ بيروت.

"كان يجلس معي الساعة والساعتين، ويحدثني في مسائل شتى كي أتنور منها في حياتي السياسية" [1]، ولذلك أعلن كرومر حين ترك مصر أنه يترك مصر مستريحًا لأنه أقام فعلاً القاعدة الأساسية لاستدامة الاحتلال.

كانت هذه فاجعة كبرى أصابت الأمة في الصميم، ولا حول ولا قوة إلا بالله [2].

أحمد لطفي السيد (أستاذ الجيل ١٢٨٨-١٣٨٢هـ/ ١٨٧٠-١٩٦٣م)

دأب الإنجليز على استقطاب شيوخ الأزهر، واستمالتهم وتسليط الضوء عليهم، وتهيئتهم للمشاركة في تحقيق أهدافهم، وانطلقوا يبحثون عن ضالتهم، فبذروا بعض الحبِّ، ونثروا شيئًا من الإغراءات، فبرز منهم من رغبوا فيه، ممن عندهم استعداد للتخلي عن مبادئهم، والتحرر من كل ما تفرضه عليهم العقيدة الإسلامية.

ظهر منهم سعد إبراهيم زغلول، الذي لازم جمال الدين الأفغاني، واشتغل مع الشيخ محمد عبده في تحرير مجلة الوقائع، واشترك في الثورة العرابية، وكان رجل مصر وخطيبها بعد الحرب العالمية الأولى، وكان أول من خلعت زوجه الحجاب، وكانت عليه تبعة تنفيذ المخططات الاستعمارية في الوقت الذي تظاهرت له انجلترا بالعداوة أمام الشعب لتبدو وطنيته، وليزداد تألقًا ولمعانًا، ووجد الإنجليز فيه ضالتهم المنشودة.

لم يكن سعد زغلول هو الوحيد الذي استقطبته السلطات البريطانية في مصر، ولكن كان هناك رديفه وصنوه في البلاء والتلبيس "أستاذ الجيل" أحمد لطفي السيد، الذي صار النسخة الشائهة لأعداء لغة القرآن من المستعمرين، والذين حاولوا توجيه الحرب على اللغة العربية.

دعا أحمد لطفي السيد إلى تمصير اللغة العربية، وكتابتها بالعامية، وهي دعوة استعمارية بجسمها وروحها، وهي هي دعوة ويلكوكس، وولمور، أول داعين للعامية وتَرْك الفصحى، حتى يلحق المصريون بركب التقدم العلمي والمدنية.

روج لطفي السيد للأفكار الغربية، وتمجيد كل ما هو غربي، وبأن الإسلام دين

---

(١) مذكرات سعد زغلول.

(٢) انظر كتابات المفكر الإسلامي محمد قطب في واقعنا المعاصر، وكتابات الأستاذ أنور الجندي في مجلة المجتمع الكويتية عام ١٩٨٠م العدد ٤٩٤.

روحي لا صلة له بالمناهج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ونسى أن الدين الإسلامي دين شامل كامل للروح والجسد.. دين ودولة.. وعقيدة ونظام لأمور الدنيا وأمور الآخرة.

دعا أستاذ الجيل إلى التفاهم مع الإنجليز، وزين للأمة أن تتخذ وليًا لها من الصليبيين، ولم يدعو إلى الجهاد لإجلاء الغاصبين، ومقاومتهم، بل دعا إلى الرضوخ والاستسلام للإنجليز. فيقول في جريدته (الجريدة): إن الإنجليز هم أولياء أمورنا! لا ينبغي أن نحاربهم أو نقاومهم، ومن واجبنا أن نتعلم منهم، ثم نتفاهم معهم بعد ذلك لتصفية ما بيننا وبينهم من خلافات، والله عز وجل يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (١).

أولياء أمور من غير المسلمين! من الصليبيين الكافرين!! لهذا أطلقوا عليه لقب "أستاذ الجيل" (٢).

يقول الدكتور حمد صادق الجمال:

يُعتبر أحمد لطفي السيد باشا من أوائل من دعوا إلى التغريب في النصف الأول من القرن العشرين، والمناداة بالنقل عن أوروبا، والاغتراف من بحار الغربيين، دون تمييز بين النافع والضار، والخير والشر، والصالح والطالح، وهذا يعني نبذ التشريعات الإسلامية، ومحاكاة الأوروبيين بحجة التطور والتجديد.

شن حملة ظالمة على السلفيين، واتهمهم بالتخلف والجمود، ورفض التقدم والعصرنة، وكل ما في حياة العصر من جديد.

كما يعتبر "أستاذ الجيل" أول من سهل للفتيات دخول الجامعة منذ بدء إنشائها بحجة تعليم المرأة، حتى إذا ما تم ذلك بدأت الدعوة إلى السفور، ثم إلى اختلاط الجنسين بحجة أن الاختلاط ضرورة نفسية واجتماعية، فيه تختفي العقد، ويتلاشى الشعور بالخجل في وجود الجنس الآخر، كما أنه يؤدي إلى الإشباع العاطفي، ويعلم الذوق في حضور الجنس الآخر، إلى غير ذلك من الأوهام التي تعشش في عقول النوابغ من عباقرة أمتنا!!.

---

(١) النساء ٥٩.

(٢) انظر د. حمد الجمال - المرجع السابق، الأستاذ/ محمد قطب ــ واقعنا المعاصر، الأستاذ/ أنور الجندي - عقبات في طريق النهضة.

المرحلة الثانية لتدمير الأزهر الشريف

أدركت القوى الكافرة التي لا تريد للإسلام رأسًا يُرفع، أن الأزهر الشريف ـ قلعة الإسلام الحصينة ـ قد قاد معظم الثورات الشعبية ضد الحكام الطغاة، والغزاة الطامعين.

قاد ثورة عام ١٧٩٤م للمطالبة بعزل الأمراء المماليك.. قاد الثورة ضد نابليون بونابرت حتى اضطره إلى مهاجمة الأزهر في ٣١ أكتوبر عام ١٧٩٨م، فاحتله وأتلف المصاحف، وأعدم ثمانين من علمائه، وقاد ثورة القاهرة الكبرى عام ١٨٠٠م بقيادة الشيخ عمر مكرم ضد الجنرال كليبر، وساند محمد على ضد البرديسي رئيس المماليك، وأسند إليه الولايه.. وفى عام ١٨٠٧م.تصدى الشعب المصري المسلم بقيادة شيوخ الأزهر للحملة الإنجليزيه بقيادة الجنرال فريزر على رشيد.

وفى عام ١٨٨٢م قاد علماء الأزهر الشريف الثورة العرابية، ودعوا لها ودافعوا عنها، وحوكموا من أجلها..كان أحمد عرابى أزهرياً استمد ثقافته العامه وحكمه على الأمور من تعليمه الأزهري، وكان الشيخ عليش، والشيخ أبوعليا ظهيرا للثورة العسكرية الشعبية ضد مظالم الأسرة المالكة.

لذلك كان التآمر الصليبي الشيوعي الصهيوني ضد الأزهر النبع الذى تخرج منه كل القيادات الثورية.

كانت المرحلة الأولى لتدمير الأزهر الشريف فى عهد محمد على باشا فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر، عندما رأى فى علماء الأزهر قوة تعترض سبيله،فنفى الشيوخ، وأنشأ المدارس الحديثة، وأعدّ جيلاً من غير الأزهريين أرسلهم إلى أوربا ليعودوا سفراء للغرب الصليبي الحاقد على الأزهر والمسلمين.

ثم جاءت المرحلة الثانية لتدمير الأزهر فى عهد الإحتلال الإنجليزى حيث رفع الإنجليز من شأن المدارس والجامعات العلمانية، وحجبوا رجال الأزهر، وجعلوا المناصب الكبرى فى رجال وزارة المعارف، وقصروا رجال الأزهر على الوعاظ وأئمة المساجد وفى مرتبات قليله.

الجامعة المصرية وطه حسين

حرص الإنجليز على طمس دور الأزهر الشريف وتجميده، فأنشأوا فى مطلع هذا

القرن وزارة المعارف التى احتضنت مناهج الإرساليات الصليبية فى التعليم العلماني والقضاء على أصول التربية الإسلامية بعد أن قرر المبشرون فى مؤتمراتهم أن الأزهر هو أهم عائق فى وجه الإستعمار فى مصر والعالم الإسلامي لذلك كانت مخططاتهم فى إنشاء الجامعه الأهليه (التى تحولت فيما بعد إلى جامعة رسمية) يبثون من خلالها أفكارهم ومفاهيمهم، ويصنعون فيها جيلا من المسلمين يؤمن بمطالبهم، ويقف أمام الثقافة الإسلامية ويشكك فيها.

تقول الدكتورة "بنت الشاطيء" عن الجامعة المصرية: إن تلك الجامعة الأهلية فتحت كل الأبواب للبعثات النصرانية والإرساليات الأجنبية من كل جنس وملة لتتغلغل في صميم الوجود الفكري للأمة، ولسلخ من استطاعت من أبنائها بما تُوَصِّل فيهم من عقدة الشعور بالنقص، وما تُلقي في روعهم من أن الشرقية سمة من سمات التخلف والانحطاط، وأن الاتصال بالقديم ظاهرة جمود وتحجر. لقد تغلغل النفوذ الاستعماري، الذي اتخذ مناطق معينة فيها قاعدة لتدمير معنويات الأمة، ومجال غزو فكري يضاهي ما اجتاح وجودنا العام من غزو ومثله عن طريق مؤسسات الثقافة الأجنبية، وأجهزة دعايتها المدربة.

وشغلت الأمة بنضالها السياسي عن وجوجها الفكري، وخلا الجو لتيارات الغزو الفكري، فازدادت أزمة فقدان التعاصر بين أبناء الجيل حدة وتعقدًا، واختلطت المفاهيم، واضطربت القيم، فلم نعد على الصعيد الفكري نميز بين الرجعية والمحافظة، أو بين الجمود والأصالة، أو بين الاقتباس الواعي والتقليد المردد للأصداء.".

وتضيف عائشة عبدالرحمن فتقول: "وقد سُجل مدى ما تعرض له وجودنا من زيف وضلال، ونفاق ودوار، ومن ضغط فادح، ورصد بكل دقة ذبذبة الخيوط فى الأيدى المحركة للدمى، وكشف مجال التصدى الثقافى الذى كان سببا مباشرا فى فقدان الإنسجام الفكري بين أبناء جيل واحد".

طه حسين (عميد الأدب العربي)

ظهرت الجامعة الأهلية إلى حيز الوجود،وانتظم بها طه حسين عام ١٩٠٨م.وحصل منها على إجازة الدكتوارة "ذكرى أبى العلاء" وأوفدته الجامعة فى بعثة إلى فرنسا، واتجه إلى الأخذ بمناهج المستشرقين فى دراسة الأدب العربي، وبعد عودته

حاضر فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ بعد أن عين أستاذًا بها، ثم أصبح عميدًا لكلية الآداب، ثم تولى منصب مدير الجامعة، ثم عين وزيرًا للمعارف.

عاش طه حسين فى أحضان الإستشراق حياته كلها، تتلمذ عليهم فى السوربون ومونبليه، وتلقى مفاهيم الفكر الإسلامي من خلال مناهجهم فى القرآن والشريعة والتاريخ، وتابع دوركايم وكازانوفا.

تابع طه حسين المستشرقين فى آرائهم، وأحضروه كل مؤتمراتهم، وأعجبوا به أيما أعجاب لتنفيذه مخططاتهم الخبيثة، بعد أن اتسعت خصومته مع الفكر الإسلامي والأزهري.

وضع كتابه فى الشعر الجاهلي أنكر فيه القصص القرآني ونبوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.وفى كتابه على هامش السيرة قال: إنه لا يكتب قصص القرآن على أنها حقائق بل على أنها قصص كما تفعل جدته لتسليته عند النوم، وفى كتابه الشيخان يزعم فيه أن أحداث السقيفة ليست صحيحة، وفى كتابه الوعد الحق، وكتاب الفتنة الكبرى ردد أكاذيب منها أن العوامل الإقتصادية دفعت المشركين للإسلام، وفى كتابه مرآة الإسلام دافع عن قتلة عثمان ﷺ.

ومن أخطر كتبه التى ألفها بعد معاهدة عام ١٩٣٦ مع إنجلترا، أراد فيه أن يرسم سبيل نهضة مصر التعليمية بدعوته لتناول الحضارة الغربية بحلوها ومرها، وترك ما يربط الأمة بتراثها وبإسلامها، ثم دعوته إلى الوطنية والإقليمية.. الوطنية المصرية على أساس مدني لا دخل فيه للدين، ثم لم يلبث أن دعا طه حسين إلى الفرعونية.

بعث طه حسين الأدب الشعوبي والفكر الباطني والوثني والمجوسي تمشيا مع الهدف الذى حمل لواءه وتنفيذا لخطط المستشرقين ومؤامراتهم.

استقدم طه حسين المستشرقين اليهود والصليبين ليحدثوا الشباب المسلم فى الجامعة عن القرآن، وأثر النصرانية فى مكة، وأثر اليهودية فى المدينة، وليغرسوا الأساطير والوثنيات والاسرائيليات.

وهكذا جرت محاولات إضعاف الأزهر، ومحاصرته وعزله عن الحياه، وبالرغم من كل محاولات التآمر لم تفلح الجامعة المصرية فى أن تحل محل الأزهر الشريف أو أن ترث نفوذه بين الأمم الإسلامية.

ولقد انشئت الجامعة المصرية فى أول أمرها لأهداف وطنية خالصة ثم تحولت على يد لطفى السيد (أستاذ الجيل) إلى جامعة علمانية تنافس الأزهر وتضيق عليه الخناق، وكانت كلية الآداب خاصة تحت رئاسة لطفى السيد ثم طه حسين قد تحولت إلى وكر للمستشرقين وكان كل منهما مخلصا شديد الإخلاص لمناهج المستشرقين التى تتلمذوا عليها، ورأوا فيها المثل الأعلى للمنهج العلمي.

ذكر طه حسين: إنه كان فى مصر سنة ١٩١٥م مذهبان فى درس الأدب، أحدهما مذهب القدماء، والآخر مذهب الأوربيين،استحدثته الجامعة المصرية بفضل الأستاذ نلينو ومن زامله وخلفه من المستشرقين أمثال جويدى وفييت، وقد عهدت إليهم بتدريس تاريخ الأدب، فدرسوه بمناهجهم الحديثة، وعلّموا الطلاب كيف يبحثون..وعجزت الجامعة عن دعوة المستشرقين بسبب الحرب فأضافت درس تاريخ الأدب إلى الآداب فلم توفق، فعلى المستشرقين كان متوقفا نجاح الجامعة المصرية إلى حد بعيد..وكيف نتصور أستاذا للأدب العربي لا يلم - ولا ينتظر أن يلم - بما انتهى إليه الفرنج المستشرقون من النتائج العلمية المختلفة، حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته المختلفة..وإنما يلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس، ولابد من التماسه عندهم حتى يتّح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا [١].

فتح طه حسين أبواب الجامعة، وخاصة كلية الآداب للمستشرقين وعتاة الدراسات التبشيرية والتغريبية ليحطموا فى أبناء الأمة المسلمة كل عقائدهم ومقدساتهم.

تقول السيدة "**سوزان طه حسين**" عندما تأسست جامعة الدوله عام ١٩٢٥م اتخذ الطريق إلى بيتنا قادمون جدد، بدأت جلسات الأحد التى سرعان ما اتسعت كثيرا فى الزمالك، وكان طه حسين خلالها قطبًا حقيقيًا، إذ ما كاد الأساتذة الأجانب الذين كانوا يؤلفون أول فريق يصلون إلى مصر، حتى يأتو بالطبع إلى بيتنا لقضاء ساعة أو ساعتين برفقة زوجاتهم، وكان منهم العميد **جيراجور**، والفيلسوف **أميل برهيز**، وعالم الآثار الإنجليزى **بحرندور**، والشخصية الساحرة **سكايف** الذى كان أستاذ للأدب الإنجليزى **وسالمه وساتيك**..

---

(١) محمد رشاد خليل - المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ ،تفسيره - دار التوزيع والنشر الإسلامية - ص٦١-٦٢، نقلاً عن د. فتحي عثمان - أضواء على التاريخ الإسلامي ص١٥٩.

وتقول السيدة سوزان طه حسين: كانت تلك اللقاءات التى تتم بوجه خاص مع أناس قادمين من خارج مصر تزداد بنسبة مثيرة وكانت حصيلتها محاورات خصبة بالنتائج وتبادل الأفكار، واتهامات مختلفة بقدر ما كان ينتج عنها أيضا حجارة جديدة من أجل البناء الذى كان طه حسين يتابع إنشاءه بكتبه ونشاطه [1].

ويقول الدكتور **محمد نجيب البهبيتى**: لقد فتح لطفى السيد باب الجامعة القديمة أمام هذه المستشرقة، فأتاح لها فى ظل الشرعية العلمية فرصة العمل على تنفيذ برنامجها المخطط..وتكفل طه حسين بالدعاية لها وبالمناداة على ما عندها.

هذه المؤسسة التى سميت بالجامعة المصرية القديمة بدأت أعمال التخريب للحياة الإسلامية [2].

"كان جميع المستشرقون فى أنحاء الأرض إذا مروا بمصر زاروا دار طه حسين، وكان ولاؤه الأجنبي واضحا من زياراته لهم فى فرنسا وأيطاليا واشتراكه فى مؤتمرات المستشرقين وعلاقاته بالبابا بيوس الحادى عشر الذى كان مستشرقا، والكنيسة الكاثوليكية، واعترافهم بأفضال طه حسين ووضعه على رأس مؤتمرات الإستشراق لتميزه على جميع الذين اصطنعهم الإستشراق [3].

تقول الدكتورة (بنت الشاطئ) عن الجامعة المصرية: إن تلك الجامعة الأهلية فتحت كل الأبواب للبعثات النصرانية والإرساليات الأجنبية من كل جنس وملة لتتغلغل فى صميم الوجود الفكري للأمة، ولسلخ من استطاعت من أبنائها بما تُوْصل فيهم من عقدة الشعور بالنقص وما تلقى فى روعهم من أن الشرقية سمة من سمات التخلف والإنحطاط، وأن الإتصال بالقديم ظاهرة جمود وتحجر..لقد تغلغل النفوذ الإستعماري، الذى اتخذ مناطق معينة فيها قاعدة لتدمير معنويات الأمة، ومجال غزو فكري يضاهى ما اجتاح وجودنا العام من غزو مثله عن طريق مؤسسات الثقافة الأجنبية وأجهزة دعايتها المدربة. وشُغِلتْ الأمة بنضالها السياسي عن وجودها الفكري، وخلا الجو لتيارات الغزو الفكري فازدادت

(١) الوجه الأخر لطه حسين ـ من مذكرات السيدة سوزان "معك" ـ أنور الجندي ـ دار الاعتصام.
(٢) أنور الجندي ـ هل غيَّر طه حسين آراءه في سنواته الأخيرة ـ دار الاعتصام.
(٣) أنور الجندي ـ الوجه الأخر لطه حسين ـ دار الاعتصام.

أزمة فقدان التعاصر بين أبناء الجيل حدة وتعقيداً، اختلطت المفاهيم، واضطربت القيم فلم تعد على الصعيد الفكري تميز بين الرجعية والمحافظة أو بين الجمود والأصالة، أو بين الإقتباس الواعى والتقليد المردد للأصداء..

لقد سجل الإنتاج الفكري مدى ما تعرض له وجودنا من زيف وضلال ونفاق ودوار، ومن ضغط فادح، ورصد بكل دقة ذبذبة الخيوط في الأيدي المحركة للدمى، وكشف مجال التصدع الثقافي الذي كان سببًا مباشرًا في فقدان الانسجام الفكري بين أبناء جيل واحد [1].

ظهرت الجامعة المصرية إلى حيز الوجود، وظهر من خلالها الدعوة إلى الوطنية الإقليمية.. الوطنية المصرية، والوطنية العراقية، و الوطنية السورية.. وظهر من خلالها عميد الأدب العربي طه حسين، التلميذ النجيب لمستشرقي أوربا ليشيد بالحضارة الأوربية، وينادي بضرورة الأخذ بها.. حلوها ومرها، وخيرها وشرها، ويدعو إلى ثقافة شعوب البحر المتوسط، وحرية الفكر، ودراسة الإسلام على طريقة المستشرقين، لأن طريقة الأزهر لا تحقق عمق الثقافة وحرية الفكر!!

يقول الدكتور المحتسب في كتابه (طه حسين مفكرًا):

أربعون عامًا ينفقها طه حسين في الدعوة للفكر الرأسمالي، والثقافة الفرنسية والفرعونية.. ثم ينقلب ويتحول إلى الدعوة للقومية العربية.. وطه حسين من بناة الفرعونية طيلة أربعين عامًا.. فكيف يصير واحدًا من بناة القومية العربية، ولقد وقفت الدعوة إلى القوميات في بلاد المسلمين مع الأفكار الغربية الرأسمالية، وقد وظف طه حسين نفسه للترويج والدعوة - التي لا تعرف الملل أو الكلل - إلى الفرعونية والدعوة إلى القومية بضاعة أوربية رأسمالية في العصر الحديث [2].

(١) كتابات لأنور الجندي.
(٢) أنور الجندي - هل غير طه حسين آراءه في سنواته الأخيرة - دار الاعتصام.

المستشرقون فى العالم الإسلامي

حينما إستيقظ العالم الأوربي لنهضته الحديثة رأى حوله عجبا، رأى أمما مختلفة الأجناس والألوان والألسنة من المحيط الهادى شرقًا إلى الأطلسي غربا ومن روسيا وقلب أوربا شمالا إلى قلب القارة الأفريقية وسواحلها تتلو كتابا واحدا يجمعها، يقرؤه مَن لسانه العربية، ومَن لسانه غير العربية، وتحفظه جمهرة كبيرة منهم عن ظهر قلب، عرفت لغة العرب أم لم تعرفها، ومن لم تحفظ جميعه حفظ بعضه، ليقيم به صلاته. وتداخلت لغته فى اللغات، وتحولت خطوط الأمم إلى الخط الذى يكتب به هذا الكتاب كالهند وجزر الهند وفارس.

رأى العالم الأوربي المسيحي كتابا له قوة خارقة فى تحويل البشر إلى إتجاه واحد متسق على إختلاف الأجناس والألوان والألسنة.

منذ ذلك العهد ظهر الإستشراق لدراسة أحوال العالم الإسلامي لتتصدى له أوربا المسيحية بعد يقظتها، ولتخوض مع هذا الكتاب الذى سيطر على الأمم المختلفة وجعلها أمة واحدة تعدُّ العربية لسانها، وتعد تاريخ العرب تاريخها ـ معركة حامية.

تبين للعالم المسيحي أن لا وسيلة إلى إقصاء القرآن إلا بالسيطرة على وسائل التعليم والحط من لغة القرآن فى بلدان العالم الإسلامي،واتجهت الأنظار إلى مصر منارة العالم الإسلامي وصوبت السهام نحوها قبل أي مكان [1].

قامت الكنيسة بإيفاد عدد من القساوسة الذين أعدوا إعدادا خاصا إلى بعض العواصم الإسلامية فى الأندلس والمغرب العربي لدراسة اللغة العربية وعلومها، رائدهم فى هذا تتبع العورات وتلمس الشبهات، ليقوموا بعد عودتهم إلى بلادهم بتأليف الكتب وإلقاء المحاضرات المشحونة باختلاق المثالب وإثارة الحفائظ ضد المسلمين.

أنشأت الكنيسة بعض المدارس العربية فى روما وغيرها لإعداد أجيال من المتخصصين فى العلوم الإسلامية على نحو يؤهلهم لنشر كل ما يسيئ إلى الإسلام والمؤمنين به.

---

(١) محمود شاكر ـ أباطيل وأسمار.

كان أولئك القساوسة الذين أوفدوا إلى ديار الإسلام، هم الطلائع الأولى للاستشراق ثم جاءت الحروب الصليبية وأدرك الغرب أن الشرق يتفوق عليه فكرياً وحضارياً وإقتصادياً فاتسعت دائرة الإستشراق وأقبلت كل دول أوربا على الدراسات الشرقية والتراث الإسلامي للتمهيد للإنقضاض على الشرق، والقضاء على الإسلام والمسلمين.

امتلأت المؤلفات الغربية بالسخافات والجهالات والضلالات بعد أن ترجم القرآن الكريم ترجمة محرفة مشوهة ينكرها الأصل العربي كل الإنكار [1].

الإستشراق الصهيوني النصراني

كان عام ١٥٠٥ م. بداية التحالف اليهودي النصراني للقضاء على الإسلام والمسلمين، حيث كتب أحد اليهود مشروعاً لذلك التحالف وقدمه إلى البابا، دعا فيه إلى احتلال العالم الإسلامي، وانتزاع الأراضي المقدسة من المسلمين، واحتلال اليهود لفلسطين.

قدم اليهود إلى الدول الأوربية المسيحية كل ما عرفوه عن المسلمين من مواطن الضعف والقوة ومن ثم كانوا عونا لهذه الدول عى احتلال الشعوب الإسلامية، وتحقيق الحلم الصهيوني باغتصاب فلسطين، كما أنهم فاقوا المستشرقين النصارى فى إذاعة الإفتراءات حول الفكر الإسلامي.

قام الإستشراق الروسي بدور كبير فى مساعدة الصهيونية للتغلغل فى فلسطين وإنشاء الوطن اليهودي فى قلب الوطن العربي، ففى عام ١٨٥٢ أنشأت القيصرية الروسية لجنة من المستشرقين والمتخصصين فى المسائل العربية كان بينها عناصر يهودية هدفها الأول: تهيئة الوسائل اللازمة لتأسيس بيوت لإيواء اليهود المهاجرين إلى فلسطين، وإنشاء مستشفيات لمرضاهم تحت إشراف البعثة الروسية التى اتخذت القدس الشريف مركزا لها بدعوى رعاية الكنائس التابعة لها والنصارى الذين ينتمون إلى المذهب الأرثوذكسي الروسي، وفى عام ١٨٦٤ م. بعثت روسيا وفدا من أعضاء هذه الجمعية للسفر إلى فلسطين سرا لتهيئة الوسائل اللازمة لإقامة ملاجئ ومصحات

(١) انظر د. محمد الدسوقي ـ الفكر الاستشراقي ـ دار الوفاء.

ومستشفيات ودور للزوار اليهود الذين يصلون إلى القدس لزيارة حائط المبكى فى بيت المقدس من جميع أنحاء العالم [1].

من مزاعم المستشرقين وافتراءاتهم

سعى المستشرقون إلى إضعاف مثل الإسلام وقيمة العليا من جانب، وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر،وإظهار أى دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر، واتخذوا لذلك نهجا فى التشكيك والمغالطة وتشويه الحقائق والافتراء والتزوير، واتبعوا لبلوغ ما يريدون كل وسيله تتيح لهم بث سمومهم ونشر أباطيلهم فاستخدموا الكتاب والمقال فى المجلات والدوريات، وكرسي التدريس فى الجامعة، والمنافشة فى المؤتمرات العلمية العامه، والبث المسموع والمرئي عن طريق الأقمار الصناعية التى تتسابق دول العالم فى إطلاقها.

أنكر المستشرقون نبوة الرسول ﷺ، وسماوية القرآن الكريم وشككوا فى أن يكون القرآن الكريم قد أوحي به إلى الرسول ﷺ من عند الله عزوجل، أو أن يكون الإسلام دينا من عند الله، وإنما هو ملفق من الديانتين اليهودية والمسيحية ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[2] وأن شرائع الإسلام قد تأسست من شرائع اليهود والمسيحية والهندية والصابئة والفارسية والجاهلية [3].

زعموا أن الإسلام أخذ من الجاهلية صلاة الجمعة وصوم عاشوراء، والتكبير، والأشهر الحرم، والحج والعمرة، ونتف الإبط، وحلق العانه، والختان، وتقليم الأظافر، والوضوء والإغتسال، وحظ الذكر مثل حظ الأنثيين.

وأخذ من الصابئة: الصلوات الخمس، والصلاة على الميت، وصيام شهر رمضان، والقبلة وتعظيم مكة، وتحريم الميتة ولحم الخنزير، وتحريم الزواج من القريبات.

وأخذ من الهندية والفارسية قصة المعراج والجنة والحور والولدان والصراط، وأخذ من اليهودية قصة قابيل وهابيل، وقصة إبراهيم، وقصة ملكة سبأ، وقصة يوسف،

---

(١) د. محمد الدسوقي ـ الفكر الاستشراقي ـ دار الوفاء.
(٢) الكهف ٥.
(٣) انظر كتابات المستشرقين (جب): الانجليزي في كتابه (المذهب المحمدي)، (سنكلير تسدل) في كتابه (مصادر الإسلام).

وأخذ من النصرانية قصة أهل الكهف وقصة مريم العذراء وقصة طفولة يوشع [1].

شككوا فى صحة الحديث النبوي الشريف، وقيمة الفقه الإسلامي، وقدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي، وقيمة التراث الحضارى للمسلمين، وادعوا أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، وأن العرب لم يكن لهم إبداع فكري ولا إبتكار حضاري.

كما حرصوا على إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم، وبث روح الشك فى كل ما بين أيديهم من قيم وعقيدة ومثل عليا، وعلى إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين فى مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التى كانت لهم قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم.

ومن أبرز أعمال الإستشراق التى أدخلت تفسيرات باطلة على حقائق الإسلام لتزويرها وتزيينها دائرة المعارف الإسلامية، والتى تجمع فى تحريرها أخبث وأخطر رجال الإستشراق من يهود وغيرهم، حيث تجمع عشرات الاسرائيليات والتفسيرات الزائفة وتضعها فى تفسير النص الإسلامي. فتأخذ دائرة المعارف الإسلامية القصة اليهودية للعهد القديم فى خلق آدم (فتجعلها مصدر وتعليها على مفهوم القرآن الذى يمثل حقيقة هذه القصة، وكذلك تأخذ بوجهة نظر اليهود فى إبراهيم وإسماعيل وإسحق، وإعطاء فكرة للعالم أن فلسطين كانت يهودية قبل الإسلام [2].

لقد سلك المبشرون والمستشرقون كل مسلك ظنوه محققا لأهدافهم واستطاعوا أن يتسللوا إلى المجمع اللغوي بمصر، والمجمع العلمي بدمشق، والمجمع العلمي ببغداد، وتدخلوا فى مجال التربية والتعليم لغرس مبادئ التربية الغربية فى نفوس المسلمين.

من أبرز تلاميذ المستشرقين

استخدم المستشرقون تلاميذهم من أبناء المسلمين - الذين درسوا بجامعاتهم وتشربوا بمبادئهم، وبعد أن أصبحوا قادة للفكر - فى تحقيق أهدافهم.

---

(١) إبراهيم خليل أحمد - المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي - مكتبة الوعي العربي. وقد عمل في ميدان التبشير والاستشراق قبل إسلامه، وشرح الله صدره للحق.

(٢) أنور الجندي - المد الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر الهجري.

كان من تلاميذهم السير (أحمد خان) بالهند، الذى اشتهر بحركته العلمية القائمة على الافتتان بالعلم الطبيعي وبالحضارة الغربية. والافتتان بالعلم الطبيعي كما يقال يؤدى إلى خفة وزن القيم الروحية والمثاليه، وهى القيم التى تقوم عليها رسالة الأديان السماوية التى يمثلها الإسلام أوضح تمثيل.

وكان من تلاميذهم الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي، والذى كان عميداً لكلية الآداب جامعة القاهرة، ثم أصبح فيما بعد وزيراً للمعارف العموميه، وكان فى نشأته رئيساً لتحرير مجلة الكاتب المصري، وهى مجلة كانت تصدرها شركة الكاتب المصري التى هى جماعة من يهود مصر الذين هجروا مصر نهائياً عقب الانتصار على العدوان الثلاثي ببورسعيد سنة ١٩٥٦.

وهو مؤلف لعدد كبير من الكتب منها الشعر الجاهلي، ومستقبل الثقافة فى مصر، وكثير غيرهما.

فى كتابه الشعر الجاهلي يقول: "إن العرب لم يكونوا على غير دين ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا، ولم يكونوا فى عزلة سياسيه إو إقتصاديه بالقياس إلى الأمم الأخرى كذلك يمثلهم القرآن"!!، ويستطرد فيقول: "وإذا كانوا أصحاب علم ودين، وأصحاب ثروة وقوة وبأس وأصحاب سياسه متصله بسياسة عامة متأثرة بها مؤثرة فيها.فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية،لا أمة جاهلية همجية، وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن ظهر فى أمة جاهلية همجية"!!.

ثم يستطرد فى انتقاصه لاعجاز القرآن الكريم فيقول: (أفترى أحدا يحفل بى لو أنى أخذت أهاجم البوذيه وغيرها من الديانات التى لا يدينها أحد فى مصر؟ ولكنى أهيج النصارى حين أهاجم النصرانيه، وأهيج اليهود حين أهاجم اليهوديه، وأحفظ المسلمين حين أهاجم الإسلام)، وينتهى بالقول بأن الإسلام دين بشري، وأن القرآن ليس وحياً إلهياً، وإنما قاله صاحبه لقوم تجاوبوا معه أو قاموا ضده.

وفى هذا حقق طه حسين هدفاً من أهداف المستشرقين هو أن القرآن موضوع وليس وحياً من الله.

وبالموازنة بين كتاب المستشرق الإنجليزى هـ.ا.ر.جب (المذهب المحمدي) وكتاب

الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين نجد تطابقا تاما فى المفاهيم مع إختلاف فى الأداء والعبارات [1].

المرحلة الثالثة لتدمير الأزهر الشريف

أدركت القوى الكافرة - الصهيونية والصليبية والشيوعية - أن الأزهر الشريف يمد العالم الإسلامي بالعلماء الذين كانوا دوما فى تاريخ الأمة المسلمة قادتها، ومرشديها فى سائر أمورها السياسيه والإجتماعيه والإقتصاديه، وأيضا الفكريه والروحيه، وملجأها إذا ما حزبهم أمر، وملاذهم عند الفزع.. تتجه إليهم الجماهير إذا وقع عليهم ظلم الحكام والولاة، ليسعوا إلى رفع لظلم عنهم، بتذكير الحكام والولاة بربهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

أدركت تلك القوى أن الأزهر يمد المسلمين بالمعارف التى تحتاج إليها الأمة كى تحيا ..يهرع إليها الطلاب من شواطئ الهادى فى الشرق، والهندي فى الجنوب، والأطلسي فى الغرب .. من الصين واليابان وأندونسيا .. ومن المغرب والسنغال والجزائر. كما يمد المسلمين بالدعاة إلى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان..يُذَكِرُونَ الأمة بالله واليوم الأخر، والجنه التى تنتظر المجاهدين الصادقين..بل يشاركون بأنفسهم أحيانا، ويقودون الجيوش بأنفسهم فى بعض الأحيان، ويجاهدون فى الله حق جهاده، ويصبرون على ما يصيبهم فى سبيل الله، لا يضعفون أو يستكينون، ويصمدون تقديرا لمسئوليتهم أمام الله.. وهم الذين منّ الله عليهم بمعرفة دينه حين يسألهم عن الأمانة يوم القيامة.

لكل هذا كانت مخططات الأعداء ومؤامراتهم الخبيثة للقضاء على الأزهر، ومنعه من تأدية وظيفته الخطيره، وتجفيف الينبوع الذى يستقى منه المشارقه والمغاربه أصول دينهم، ومعالم وحدتهم، وعناصر وجودهم المادي والأدبي، ليتسنى لهم الإجهاز على الأمة التى أحاطت بها الذئاب من كل جانب.

---

(١) انظر إبراهيم خليل أحمد - المرجع السابق.

ثورة يوليو المباركة عام ١٩٥٢م

كانت المرحلة الثالثة لتدمير الأزهر الشريف على يد رجال ثورة يوليو فى مصر، حيث خضع الأزهر الشريف للمخطط الشيوعي اليهودي فى العالم الإسلامي الذى استهدف القضاء على الإسلام، وإحلال الماركسيه مكانه، بعد أن نظرت الشيوعية للإسلام على أنه العدو الأول للإشتراكية، وبعد أن رأت أن للعقيدة الإسلامية فى نفوس المسلمين مقدرة عجيبه على إفشال مخططاتهم ومؤامراتهم فعملوا بطرق غير مباشرة للقضاء على الدين وزعزعة العقيدة فى نفوس أبناء الأمة.

تبنى حكام مصر مفاهيم الديمقراطيه ثم الإشتراكيه، وحجبوا الشريعة الإسلامية، ثم علت الماركسيه وسيطرت، وتصدر الشيوعيون المراكز الحساسه، وشنوا حملة شعواء على الإسلام والأزهر، وجندت حكومات الثورة رجال الدين وبعض النصوص الدينيه - بعد أن طوعتها تطويعاً - للدعوة للإشتراكيه، فأخضعت الجامعات والمدارس والمساجد والمؤسسات لمراقبة تنظيماتها الشيوعيه فى الاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي، وعقد الشيوعيون الإجتماعات الدوريه لعلماء الدين وأئمة المساجد بمكاتب الشئون الدينيه بأمانة الدعوة والفكر ليقولوا فى النهاية إن القرآن يدعو إلى ما تدعو إليه الإشتراكيه، من الإعتماد على العلم فى ممارسة الحياه، وأن مهمة المسجد ينبغى أن تقتصر على بناء المواطن الصالح الذى يشارك فى بناء النهضة الحديثة!!

مؤامرة تطوير الأزهر (١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م.)

صدر قانون تطوير الأزهر فى عام ١٩٦١م ليجعل من الأزهر جامعة دينية علمية شاملة، يقول الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى: ودخل التطوير فى الأزهر بأوسع نطاق فهل يا ترى هذا ما أريد بالأزهر؟ التطوير أم التدمير؟ (١).

يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان: "...نستطيع أن نقول أن الأزهر الحديث على الرغم من جميع الجهود التى بذلت، وبالرغم من تحويله الظاهر إلى جامعة أزهريه، فقد كثيرا من المزايا العلميه والجامعيه الحقيقيه التى اقترنت بتاريخه القديم نذكر منها:

(١) انظر د. حمد الجمال - مرجع سابق ص١١٤ - نقلاً عن د. محمد عبدالمنعم خفاجى - الأزهر في ألف عام - بيروت.

(١) اختفى جيل العلماء الأعلام المبرزين فى علوم الدين واللغه ممن حفلت بهم حلقاته فى أواخر القرن الماضى، وكانوا بقية خيرة لذلك الجيل القديم، من علماء الأزهر الذين وهبوا حياتهم للدرس ، وقد كان الأزهر حتى أواخر القرن الماضى يأخذ بنصيب بارز فى تكوين الزعامه الفكرية والقومية.

(٢) فقد الأزهر كثيرا من خاصته الروحيه التى كانت تحمل شيوخه وطلابه على التفانى فى التحصيل والدرس، والتعلق بشرف العلم والإعراض عن مغريات الدنيا، وإيثار التقشف والزهد على الحياه الناعمه.. وتحول شيوخ الأزهر فى ظل النظم الجديدة شيئا فشيئا إلى نوع من ارستقراطية رجال الدين، التى تمتاز ببسطة فى الرزق والجاه، وتحول طلابه إلى ميدان الصراع المادي فى سبيل العيش والسعى وراء الوظائف.

(٣) ومن جهة أخرى فإن الأزهر الحديث على الرغم من اتسامه بسمة الجامعات العصريه،لا يزال بعيدا عن أن يجارى روح العصر فعلا، فى تنظيم مناهجه وأساليبه العلميه، فهو لا يزال يعيش على تراث الأزهر القديم، ولا يزال مرجع الدراسه بالكليات الأزهريه الحديثه فى علوم الدين واللغه طائفه من الكتب القديمه التى يعرفها الأزهر منذ العصور الوسطى.. وبعضها يرجع إلى القرن السادس الهجري والسابع والثامن الهجري.

(٤) فقد الأزهر كثيرا من مزايا الدراسه الحقه بإلغاء الحلقات الدراسيه الشهيره، التى لبثت قرونا تزين أروقته وساحاته، فقضى عليها النظام الجديد، ولم تبقى منها إلا اثار ضئيلة تتمثل فى إلقاء بعض الدروس.

والواقع أن الحلقات القديمة لم تكن إلا المدرج الجامعى الحديث، وقد كانت تتفوق بلا ريب فى عناصرها الجامعيه على فصول الكليات الأزهريه، وكان خيرًا لو أصلحت ونظّمت على غرار الدراسات الجامعيه العليا، التى يتولاها أعلام الأساتذة، قد كان فى استبقائها على هذا النحو تخليدا لذكرى الحلقات الأزهريه التاريخيه التى كانت أيام إزدهارها من محاسن الدهر وآلاء الأزهر، وكانت فى كثير من الأحيان مجمع الصفوة من الأساتذه والمستمعين.

ويضيف العالم الأزهري الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى فى كتابه الأزهر فى ألف

عام قائلاً: إن الثورة المنشودة التى يتطلبها المسلمون من الأزهر لا يمكن أن يصنعها قانون، بل لابد أن تشتعل روحها أولا وقبل كل شئ فى نفوس العلماء والطلاب.

ويعدد الدكتور خفاجى مآخذه على قانون التطوير على النحو التالى:

(١) أُخِذَ على القانون إنشاء كليات علميه جديده لا صلة لها بالدراسات الإسلاميه، فشكلت بذلك عبئا ماديا وإداريا، مع بُعدها عن رسالة الأزهر، وكان يمكن السماح لطلبة الثانوية الأزهريه دخول هذه الكليات فى جامعات مصر المختلفة خاصة الجديدة منها فيتحقق الغرض الذى قالوا به."قالوا نريد أن نخرج الطبيب المسلم والمهندس المسلم ... من الأزهر الشريف للعمل فى البلدان الإسلاميه المختلفه ليقوم بواجبه وبواجب الدعوة، وهى كلمة حق أريد بها باطل كما يقولون ـ كان الغرض الفعلي هو إبعاد الأزهر عن رسالته التى يؤديها للإسلام والمسلمين على مر العصور، وذلك طبقا لما رسمه دنلوب أيام الإحتلال الإنجليزي لمصر" [١].

(٢) نص القانون على إدماج مناهج المعاهد الثانويه والإبتدائيه من مناهج المدراس الحكوميه مع الإبقاء على مناهج علوم الدين، وبذلك تضمن القانون الإرهاق الكامل للطالب مع ضعف مستواه فى الدراسات التى تؤهله لدراسات علوم الدين، وأيضا لن يبرز فى العلوم الحديثه الأخرى.

(٣) انتقد وجود كليه الدراسات العربيه وهى لا تزيد عن كلية آداب لتحل محل اللغة العربيه" وذلك حتى يمكن اسقاط المواد التى لا يريدونها خاصة العلوم الدينيه" [٢].

لقد جاء تطوير الأزهر نكبة على الأزهر والأمة بعد أن ألغيت هيئة كبار العلماء لينتفي المضمون الإسلامي لها وحل محلها هذا المجلس الذى يصبح من ضمن أعضائه خبراء التعليم والإداره من مختلف التخصصات ولا يمنع أن يكون بينهم ذو الفكر العلماني وذو الأفكار الهدامه التى تبعد عن الفكر الإسلامي.

جاء تطوير الأزهر نكبه على الأمه بعد أن فصلت المواد الشرعيه عن المواد العلميه واستعانوا للتدريس بالجامعه بأساتذه تخرجوا من جامعات .. يدينون بالولاء

(١) هامش المرجع السابق ص١١٧.
(٢) نفس الهامش.

للغرب وليس للإسلام .. لم يهتموا بالصبغة الإسلاميه، وأصبحت الفجوة كبيرة بين العلوم الدينيه والعلوم الغربية، وكان الأولى أن يدرس طلاب التجارة البيوع الإسلاميه وفقه المعاملات، وأن يدرس طلاب العلوم الآيات الكونيه والإعجاز العلمي فى القرآن والسنه، ويدرس طلاب الهندسه العمارة الإسلاميه، وأصول التخطيط الإسلامي والمدن الإسلاميه، ويدرس طلاب الطب آداب المهنه وشروط الطبيب المسلم، وتراث المسلمين الطبي .. وكان الأولى أن يقوم بتدريس اللغات الشرقيه الأندونيسيه والباكستانيه والأورديه حتى يكون الطالب معدا للدعوه فى تلك الدول، بدلا من الاقتصار على التدريس بالإنجليزية المسمومة.

لقد نسف التعليم الأزهري من داخله بحذف أو تخفيض المواد الشرعيه والعربية ولم تعد كما كان، فتآكل الفقه والتفسير وعلوم الحديث والتاريخ الإسلامي والمنطق الإسلامي خطوة خطوة كما خطط لها كرومر ودنلوب وأذنابهم من الأمه.. وجاء التطوير ليؤكد تبعية الأمه المسلمه للغرب والركوع فى محراب ثقافته.. وليؤكد دور الخونه من قادة الأمه ومفكريها، فى التمكين للغزو الثقافي اليهودي والأمريكي !!

من صور التآمر الأجنبي على التاريخ الإسلامي
بعد إنقلاب يوليو سنة١٩٥٢

قدم المسئولون عن إبادة الحركة الإسلاميه فى مصر عام١٩٦٥أ ــ ١٩٦٧م إلى الرئيس جمال عبدالناصر، وثيقة خطيرة ـ أقرت ونفذت حرفياً ـ تتحدث عن لجنة عليا مشكلة من رئيس مجلس الوزراء، وقائد المخابرات، وقائد المباحث الجنائيه العسكريه، ومدير المباحث العامه، ومدير مكتب المشير.

تشكلت اللجنه بناء على أمر السيد رئيس الجمهورية لدراسة واستعراض الوسائل التى استعملت والنتائج التى تم التوصل إليها بخصوص مكافحة جماعة الإخوان المسلمين، وقد توصلت اللجنة فى تقريرها إلى أن: تدريس التاريخ الإسلامي فى المدارس للنشئ بحالته القديمه يربط السياسه بالدين فى "لا شعور" كثير من التلاميذ منذ الصغر، ويسهل ظهور معتنقي الأفكار الإخوانيه ولهذا أوصت اللجنه بإتباع سياسه وقائيه عامه جاء فيها:

(١) ضرورة تغيير مناهج تدريس التاريخ الإسلامي والدين فى المدارس وربطهما بالمعتقدات الإشتراكيه كأوضاع إجتماعيه وإقتصاديه وليست سياسيه، مع إبراز مفاسد الخلافه وخاصة زمن العثمانين وتقدم الغرب السريع عقب هزيمة الكنيسة وإقصائها عن السياسة.

(٢) التحرى الدقيق عن رسائل وكتب ونشرات ومقالات الإخوان فى كل مكان ثم مصادرتها وإعدامها.

(٣) التوقف عن السياسه السابقه فى السماح لأى متدين بالسفر للخارج للدراسه أو العمل حيث فشلت هذه السياسه في تطوير معتقداتهم وسلوكهم... [١]

كان هذا فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر، أما فى عهد الرئيس أنور السادات فقد جاء فى التقارير المرفوعه إليه بخصوص مكافحة التطرف الإسلامي أنه قد تبين أن

(١) انظر إلى حسين بن محسن بن علي جابر ـ الطريق إلى جماعة المسلمين ـ دار الدعوة ص٤٣٢-٤٥٥، ود. جمال عبدالهادي، أ. علي أحمد لبن ـ التطوير بين الحقيقة والتضليل ص٥٣.

تدريس التاريخ الإسلامي للنشئ في المدارس بحالته الموجوده والتى تم تطويرها فى الخمسة عشر سنه الماضيه مازال يربط الدين بالسياسه فى لاشعور كثير من التلاميذ منذ الصغر، مما يؤدى إلى ظهور معتنقى الأفكار الإسلاميه.

لذلك، كان التأكيد ثانية على إعادة النظر فى مناهج تدريس التاريخ الإسلامي والدين عامة فى المدارس والعمل على تغيير هذه المناهج لربط الدين بالأوضاع الإجتماعيه والخلقيه وليس مع السياسه مع إبراز مفاسد الخلافه وخاصة زمن العثمانيين وتقدم الغرب السريع عقب هزيمة الكنيسه وإقصائها عن السياسه.

كما كان التأكيد على الإهتمام بالاستمرار والإسراع فى سياسة تطوير الأزهر إلى جامعه كلاسيكيه حتى يتوقف سيل الخرجيين من محترفى الدين، وحتى يمكن تطوير سلوك وأفكار الأئمه والمدرسين ورجال الدين وإعادة النظر فى التكوين الفكري المرتبط بالنظريات الإسلاميه القديمه وتسليط الدعايه والإعلام على مجددى ومطورى الدين مثل طه حسين وخلافه. (١)

المنظمات الدوليه وإفساد مناهج التعليم (٢)

منظمة الإسلام والغرب

تكونت هذه المنظمة تحت رعاية منظمة اليونسكو التعليمية UNESCO التابعة لهيئة الأمم المتحدة، وبالتعاون مع المنظمه العربية للتعليم والثقافة ALESCO التابعه لجامعة الدول العربية، حيث عقدت ندوة استشاريه حول التوصل إلى تفاهم أفضل بين الإسلام والغرب فى فينيسيا (البندقيه) بإيطاليا فى المدة من ١٦ : ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٧٧م، وكان المشتركون فى الندوة خمسه وثلاثون منهم عشرة من المسلمين وخمسه وعشرون من الغربيين من أعلى المستويات التعليمية والسياسيه منهم هاريسون براون الرئيس الأسبق لأكاديمية العلوم الأمريكيه ومن أبرز علماء الذرة فى العالم، واللورد كارادون الممثل السابق لبريطانيا فى الأمم المتحدة ومحرر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢،

(١) تعاون في إعداد هذه التقارير صفوة رجال الاستخبارات الأمريكية والإسرائيلية، وبعض استخبارات الدول العربية.

(٢) المرجع السابق ص٢٧-٢٩.

وهو الذى تولى رئاسة المجلس التنفيذي لهذه الجمعيه المشبوهه والسيد هارولد بيلى سفير بريطانيا السابق فى مصر وممثلان عن الفاتيكان وغيرهم.

وقد شكلت الندوة لجنه إسلاميه لتضع دستورا لمنظمة الإسلام والغرب، وتتكون هذه اللجنه الإسلاميه من ثمانية أعضاء أربعة من المسيحيين من الغرب، ويضاف إليهم رئيس هذه المنظمة الدكتور معروف الدواليبى (مستشار الملك خالد ملك السعوديه رحمه الله)، والسيد براون، والمدير العام اللورد كارادون، على أن تجتمع اللجنه فى فبراير سنة ١٩٧٨ فى باريس لتستخلص الأهداف من المناقشات العامه التى تمت فى فينيسيا توطئة لتقديم اقتراح بدستور المنظمه، وذلك للعمل بوجه خاص لاخراج كتب للمراحل الإبتدائيه والثانويه والتعليم العالى والإذاعة والتليفزيون ودور النشر.

فى المده من ٣ ـ ٦ أكتوبر ١٩٧٩ عقد المؤتمر التأسيسي لجمعية منظمة الإسلام والغرب حيث أصدرت برنامجا حظي بالقبول وكان عنوان هذا البرنامج هو مراجعة كتب تدريس وتطوير المادة التعليمية بوصفها السبيل إلى تفاهم أفضل بين الإسلام والغرب، وجاء فى قائمة محتويات البرنامج ما يؤكد على الإتجاه العملى البراجماتى أى النفعى الأمريكى، ويؤكد أيضا على مراجعه الكتب المدرسيه، وإعداد المادة الدراسيه ...إلخ.

برنامج عمل منظمة الإسلام والغرب

- جاء فى برنامج عمل منظمة الإسلام والغرب ص ٧: "إن مؤلفي الكتب والمدرسين لا ينبغي لهم أن يسمحوا لأنفسهم بأن يصدروا أحكاما على القيم سواء صراحة أو ضمناً.كما لا يصح أن يقدموا الدين على أنه معيار أو هدف، وعليهم أن يجتنبوا الخوض فيما يتعلق من الماضي بالحاضر أو القيم الشخصيه التى تتسم بالمفارقات التاريخيه"، "ومن المرغوب فيه أن الأديان يجب عرضُهَا ليَفهَمَ منها التلميذ ليس خصائصها الأساسيه فقط، ولكن أيضاً ما تشترك فيه مع غيرها من الأديان ـ على وجه العموم وذلك فى القطر الذى يتم فيه التدريس".
- وفى ص ٨: "ويلزم فحص الكتب الدراسيه التى قامت بتقديم المظاهر الدينيه على أن يقوم بذلك علماء من مختلف التخصصات، وكذلك أعضاء من أصحاب العقائد الأخرى وكذلك من اللادينيين".

- وفى ص ١٠: "يلزم أن نقرر من هم الخبراء القادرون بصورة كافيه للإسهام فى مهمة المراجعه ـ مراجعة كتب التاريخ ـ هل هم الأكاديميون حتى تظل فى دائرة التاريخ.أم الشخصيات السياسيه حتى تتحول القرارات إلى تطبيق عملي؟ أم المبرزون من المؤرخين ومحررى الكتب الدراسيه الذين قد لا يكونون من المتخصصين دائماً.. ويلزم أن نضيف أنه فى الغرب تتردد السلطات السياسيه أحيانا فى أن تفرض شيئا على المحررين والمدرسين باسم الحريه العمليه التعليميه واستقلالها،فى حين أن جُلّ هذه المشكلات ليس أكاديمياً مجرداً ولكنه عملي".

- وجاء فى ص ١٢: "إن على جمعية الإسلام والغرب أن تتولى زمام المبادرة فى مراجعة الكتب الدراسيه، وأن الفتره التى تمر بها تُعدّ مواتيه لتشجيع كافة الأطراف فى آن معاً (المسلمين والغرب) على مراجعة الكتب الدراسيه، وهذه العمليه تتطلب إعداداً دقيقاً ومنحى جديداً، بالإضافه إلى خطوات يتقبلها الجانبان".

ويعلق أصحاب كتاب التطوير بين الحقيقة والتضليل ص ٢٩ فيقولون:

كل هذه القرارات غير قابله للتطبيق إلا فى البلاد الإسلاميه، وقد طبقت بالفعل فى مصر ودولة الإمارات العربيه، أما دول الغرب ومنها أمريكا فإنه لا يسمح بتدخل الحكومه سياسياً، فى تغيير أى منهج حتى بالنسبه للولايات الفيدراليه فالعمليه التعليميه عندهم بعيده عن أصابع العبث والتذبذب أو غيرها، فتربية النشئ عندهم تخضع لسياسات ثابته تخدم القضايا القوميه، وما ذكر عن ضرورة تحول القرارات إلى تطبيق عملي وفرض ذلك بالقرارات السياسيه غير مقبول فى مجتمعات الغرب ولا يقصدون به إلا مجتمعاتنا، وهو ما تسعى إلى تحقيقه جمعية الإسلام والغرب فى بلادنا للأسف.

اليونسكو وتشويه التاريخ الإسلامي

جاء العلم، وجاء العلماء بألف دليل ودليل على وحدة الأرض وما عليها، ووحدة السماء.ومن هذه الوحده درج الناس والعلماء إلى وحدة رب هذه الأرض ورب السماء سبحانه وتعالى.

ومع هذه بقيت فى العلماء بقية تقول بالخلق والتخلق، وتنكر وجود الله. ومن هذه البقية العالم الإنجليزي، جوليان هكسلي Julian Huxley، فكتب كتاباً أسماه "الإنسان

يقوم وحده "Man Stands Alone" [١].

تولى جوليان هكسلى رئاسة اللجنه التحضريه للمؤتمر التأسيسي الأول لليونسكو، فوضع فى كتابه (اليونسكو وأهدافها وفلسفتها) نظرية أسمها (الإنسانية الإرتقائيه) لتحل محل الأديان والفلسفات المحلية وذلك بحجة تذويب الفوارق الثقافية بين الشعوب لتجنب الصراعات الدولية.

تبنت اليونسكو الفكر الإلحادي وبدأت منذ إنشائها تتحيز ضد الإسلام والمسلمين وظهرت مؤلفاتها التى صدمت مشاعر كل مسلم يعتز بدينه، وصدر عنها ستة مجلدات بها الكثير من الأكاذيب والمغالطات حول الإسلام والمسلمين [٢].

حقيقة اليونسكو

يؤكد الباحثون أن اليونسكو فرع من فروع هيئة الأمم المتحدة، يسيطر عليه اليهود ويخدم أغراض الصهيونية متذرعه باسم العلم والفن والثقافة، ويحسن الظن بها بعض المسلمين، وتتباهى بعض الدول الإسلامية بأن لديها مكاتب تابعه للأمم المتحدة [٣].

جهود التسوية وجنايتها على التعليم العربي الإسلامي

من البديهيات التى لا تغيب عن بال أى متتبع لجهود التسويه السلميه مع اليهود ابتداء من إتفاق كامب ديفيد عام ١٩٧٩ حتى إتفاق واشنطن عام ١٩٩٥ الفلسطيني اليهودي، أن إطار ونطاق هذه التسويه لا يقف عند حدود السياسه والاقتصاد وإنما يتعدى ذلك إلى المجالات الإجتماعية والثقافية.

تأثير التسويه على نظم التعليم العربية

فى ظل حالة القصور التى تعانى منها الأنظمة التعليميه العربيه، وحالة الوهن التى

(١) انظر مقدمة كتاب العلم يدعو للإيمان - كريس موريسون - ترجمة محمود صالح الفلكي - مكتبة ٢٢٢.
(٢) انظر كتاب التطوير بين الحقيقة والتضليل.
(٣) الأمم المتحدة ٨٠٪ من موظفيها يهود، حيث تضم أربعة آلاف موظف يهودي بين خمسة آلاف موظف - والسكرتارية العامة للأمم المتحدة ٩٠٪ من موظفيها يهود، أما منظمة اليونسكو فهي يهودية روحا ودما. (انظر أنور الجندي - معالم التاريخ الإسلامي المعاصر - دار الإصلاح).

تعيشها الثقافة العربيه يأتى المشروع الصهيوني لنظام الشرق الأوسطي بما يتضمنه من تطبيع ثقافي وإقتصادي وعقدي للمجتمعات الإسلاميه.

إن مفهوم المشروع الصهيوني الإقليمي للشرق الأوسط كما تراه الدولـه العبريـه لا يقتصر على إنشاء نظام سياسـي إقتصـادي فـى لمقـام الأول فحسب بـل يتضمـن الحـانب الثقافي الذى سوف يمهد للنظام السياسي ويعطيه مشروعية وجوده، وقد بدأ ذلك منذ كامب ديفيد بالترويج لمقولة السلام الذى سيجلب الرخاء والتنمية والاسـتقرار فـى المنطقـة ليس من خلال النظام الصهيوني فقط بل شاركت فى دلك مؤسسات أمريكية ومؤسسات دولية.

يسـعى المشـروع الصهيونـي إلـى عولمـة القيـم، ونشـر وترسـيخ حالـة ذهنيـة أو سيكولوجيه لدى العرب تجطهم تدريجياً بلا بُعدْ تاريخي ولا هويه، وذلك عن طريق تغيير ملامح المنطقة وإهدار تاريخ الأمة العربية المسلمة والثقافة والتراث.

ولعل التعليم هو أحد المداخل الرئيسية الهامة لتـمرير هـذا المشـروع، عـن طريـق إعادة صياغة عقل ووجدان الأجيال الجديدة، وتهيئة المسرح التربوي لتقبل القيم التى تخدم أهداف المشروع الثقافي الصهيوني.

وتشير الدراسات الحاليه إلى النقص الشديد فى المعلومات المقدمة للطـلاب العـرب عن الحق العربي والقضية الفلسطينية، وإلى تهميش المفاهيم الإسلامية والوحده، وتكريـس النزعات الإقليمية والقطرية. بل والقبلية أيضاً، وهذا من شأنه يجعل فكرة الشرق أوسـطيه والمشروع الصهيوني أمرا مقبولا لدى الفرد، كذلك تكرس الخلافات السياسية والنزعـات الإنفصالية مما يمهد لسيطرة اليهود على المنطقة وقيادتها.

كما تشير الدراسات إلى تحسين صورة إسرائيل عبر المناهج الدراسية فـى نفـوس النشئ بإعطاء صورة طيبة عنها بإعتبارها عدو الأمس وصديق اليوم متناسين الإجراءات القمعية التى يقوم بها اليهود ضد الفلسطينين وهجرمهم المستمر على الشعب اللبناني.

تغيير المناهج التعليمية [1]

بالرجوع إلى نصوص إتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨م نجد أنها استهدفت إعادة صياغة العقل المصري ليتقبل ما يسمى بأرض الميعاد حيث أكدت الإتفاقية على.

- ضرورة فتح الحدود مع إسرائيل وتبادل المعلومات والثقافة والعلوم معها.
- ضرورة مراجعة البرامج الدراسية فى كلا الجانبين ـ مراجعة شاملة ـ وفحص ما يدرس فى مصر عن إسرائيل، وما يدرس فى إسرائيل عن مصر والعرب، وتحديد ما يجب حذفه من برامج التعليم الحاليه، وإضافة المواد الجديدة المرغوب فى دراستها.
- ضرورة إزالة المفاهيم السلبية تجاه إسرائيل فى الإسلام ... إلخ.
- وقد صرح اسحق نافون رئيس الكيان الإسرائيلي السابق فى خطابه بجامعة بن جوريون أمام الرئيس السادات فى ١٩٨٠/٥/٢٧ بأن تبادل الثقافة والمعرفة لا يقل أهمية عن الترتيبات العسكرية والسياسية. وصرح أيضا فى خطابه أمام قيادات الحزب الوطني بمصر فى ١٩٨٠/١٠/٢٨ بأن أى صياغة أدبية أو دينية تخالف التصورات الإسرائيلية تُعدُ مساسًا بالسلام الإسرائيلي.
- وفى جامعة تل أبيب عقدت ندوة يوم ١٩٨٠/٢/١٩ حول دعم السلام بين مصر وإسرائيل أثار اليهود فيها موضوع ما ورد في القرآن الكريم من اتهامات ضد اليهود.
- ونشرت صحيفة الرأي الأردنية في ١٩٨١/٩/١٠م أن بيجن رئيس وزراء إسرائيل طلب من الرئيس السادات تغيير كتب التاريخ والقرآن الكريم، وذلك عند زيارته لمصر فى ١٩٨٠/٨/٢٥م حيث قال للسادات أنهم لن يرضوا أن يستمر الطلبة فى مصر يدرسون كتب التاريخ التى تتحدث عن إغتصاب إسرائيل لفلسطين، وكتب التربية الإسلامية التى تحتوي على آيات تندد باليهود وتلعنهم ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[2]، وذكرت

(١) المرجع نفسه.
(٢) المائدة ٨٢.

الصحيفة أن السادات استجاب على الفور لطلب صديقه بيجن، وأمر بإعادة النظر فى المناهج الدراسية.

الدعم الأمريكي لتغيير المناهج

كانت المعونة الأمريكية والقروض المشروطة أول مَنْ تقدم بالدعم المادي والمعنوي للمشروع الصهيوني فى تغيير مناهج التربية والتعليم فى البلاد العربية تحت إسم تطوير المناهج التعليمية.

اشترطت القروض الأمريكية أن تحقق لأمريكا النفع ولو أدى ذلك الإضرار بنا تمشياً مع مذهبهم البراجماتى.

قدمت أمريكا قروضا ومعونات لإنشاء المدارس بشرط تعميم الاختلاط وآثاره المدمرة بين الطلبه والطالبات فى مرحلة المراهقة، كما قدمت الوسائل التعليمية التى تخدم مخططات الصهاينة فى إغتصاب ديار الإسلام، وتجهيل الطلاب بالقضية الفلسطينية عبر الخرائط الجغرافية.وفى مجال المراكز البحثية التابعه لوزارات التربية كانت القروض والمعونات الأمريكية ذات آثار تدميرية بعد إختيار المناهج التعليمية التى تشيع السفور والزنا وكل ما يدمر البنية الأخلاقيه للشباب والشابات.

دفعت المعونة الأمريكية بالخبراء والمستشارين اليهود الذين يحملون الجنسية الأمريكية بموافقة الحكام العرب فى مصر والبلاد العربية ليقوموا بمهمة التخطيط لتطوير المناهج التربوية فى البلدان العربية، وبدأت اللجان بمصر أولا ثم انتقلت بعملها بعد ذلك إلى بعض الدول العربية بهدف التحديث والتطوير.

تفريغ مناهج وزارة التربية والأزهر من المحتوى الإسلامي [1]

سعى التطوير إلى طمس عقيدة الأمة وتذويب هويتها، وتغريب تقاليدها،فحذفت كتب التاريخ الإسلامي وتقرر بدلا منها تاريخ الوثنيات القديمه التاريخ الفرعوني وغيره ليحل محل تاريخ الإسلام، كما حذفت العبارات والموضوعات الإسلامية من كتب القراءة والفلسفة والتربية الوطنية، وحذفت مواد التفسير والحديث والتوحيد والمنطق من بعض الصفوف الدراسية.

(١) المرجع نفسه.

- فى المرحلة الإبتدائية استبعد كتاب التاريخ الإسلامي وتقرر بدلا منه التاريخ الفرعوني.
- وفى المرحلة الإعدادية ألغي أكثر من ثلثي كتاب التاريخ الإسلامي ليحل محله تاريخ الوثنيات القديمة وتقلص الثلث الباقى واختصر فيه التاريخ الإسلامي اختصارًا مخلاً مشوهاً ومحرفاً.
- وفى المرحلة الثانوية أضيف تاريخ أوروبا فى العصور الوسطي على تاريخ الإسلام مما أدى إلى إنكماش تاريخ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان إلى بضعة أسطر.
- كما الغى تاريخ صلاح الدين وكل ما يربط الطالب بوطنه وقيمه وتاريخه فى كتاب اللغة الإنجليزية وتقرر بدلا من ذلك موضوعات عن الرقص والغناء وكل ما يربطه بالحضارة الغربية.
- تقرر فى كتب القراءة الجديدة موضوعات قصص الحب لنجيب محفوظ بدلا من موضوعات شجاعة عبدالله بن الزبير والجهاد فى سبيل الله والفروسية والشجاعة.
- وتقرر فى كتب التربية الإسلامية موضوعات حياة السيد البدوى وتحليل الربا والغناء والموسيقى بدلامن حياة الصحابة ووجوب تطبيق الشريعة الإسلامية وتحريم الربا والخمور.
- استبعدت موضوعات التربية وعلم النفس وتقرر بدلا منها موضوعات مفرغة من المحتوى الإسلامي وهدي الرسول ﷺ تحض على الإنحلال الخلقي والإنحراف العقدي.

موقف علماء مصر وكُتّابهَا من مؤامرة التطوير[1]

وقف كبار كتاب مصر من عملية حذف الآيات القرآنية من المناهج التعليمية، ودافعوا بقوة منهم الدكتور جمال عبدالهادى وآخرون فى كتب (التطوير بين الحقيقة

(١) انظر د. جمال عبدالهادي وآخرون ـ التاريخ بين الحقيقة والتضليل ـ التطوير بين الحقيقة والتضليل (الداء)، (الداء والدواء)، الأستاذ على أحمد لبن: المؤامرة على الأزهر ومعلميه، الغزو الفكري في المناهج الدراسية، (النخبة من خبراء التعليم)، سلسلة الغزو الفكري في المناهج الدراسية ـ الوفاء للطباعة والنشر.

والتضليل) والدكتور محمد سيد أحمد فى كتابه (الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر).

كما كتبت الصحفية المصرية مايسة عبدالرحمن سلسلة موضوعات صحفية عام ١٩٩٣م.حول ما أطلق عليه تطوير التعليم تبين فيها أن التطوير يعنى إختزال التاريخ الإسلامي فى مراحل التعليم المصري الإبتدائي والإعدادي والثانوي.. ويعنى حذف غزوات الرسول ﷺ والتآمر اليهودي فى عصر النبوة.

كما تصدى لهذه المؤامرة كل من الكاتب الإسلامي فهمي هويدى فى مقال بعنوان (فتنة فى الأرض وفساد كبير).. نشر فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٣/٤/٦م.

وأيضا كتب الدكتور مصطفى محمود فى جريدة الأهرام مقالا بعنوان (تطوير أم تزوير) نشر فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٣/٤/١م. قال فيه:

> إن الجهات المسئوله حذفت واختصرت جانب كبير من التاريخ الإسلامي، وحذفت من المقررات القديمة المعارك التى خاضها الرسول ﷺ ضد اليهود فى خيبر وبنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة.. ومؤتة.. وتبوك..، وقصفت كل ما هو إسلامي فى تاريخنا، وعمقت كل ما هو فرعوني.
>
> ومضي الدكتور مصطفى محمود فى مقاله المشار إليه قائلا: [وهذه العملية التطويرية باشرها ٢٩ أستاذاً ومستشاراً أمريكياً بينهم اثنان من اليهود بتمويل من المعونة الأمريكية. والسؤال أين كانت وزارة التربية والتعليم ورجالها الأفاضل..وكيف يقبل مثل هذه التوصيات من لجنة أمريكية.. وهل أصبح التاريخ الإسلامي قابلا للبيع والحقائق التاريخية قابله للمساومه.. وهل يتغير التاريخ لمجرد أننا عقدنا سلاماً مع اليهود، وهل شطبت فرنسا حملة نابليون على مصر حرصا على علاقاتها مع مصر.. أو هل شطب اليونان ومقدونيا حملة الإسكندر المقدونى على بلادنا على سبيل المجاملة..هل نشطب من القرآن ما قاله الله فى حق اليهود مجاملة لأولاد العم !!.
>
> من قال أن الصراع العربي اليهودي قد إنتهى وأن الدوله العبرية أخذت العرب بالأحضان ولو أخذتهم بالأحضان وأغرقتهم بالقبلات فلن يتغير شئ مما كان ومما سجلته صحائف التاريخ، فحقائق التاريخ لا تسقط بالتقادم].

الخلاصـــــة

إن واقع التعليم فى بلاد المسلمين اليوم ينذر بخطر كبير، وقوى الشر من اليهود والصليبين المعادية للإسلام والمسلمين تجعل من قضية إفساد التعليم غاية استراتيجية لها من أجل خلق أجيال بلا هوية، ومنسلخة عن دينها. أجيال مفرغة من ضميرها الديني بلا خلق ولا قيم.

ويتساءل المرء لماذا لا تدرس التربية الدينية فى الجامعات إلا فى قسم اللغة العربية بكليات الآداب ودار العلوم وهى دراسة محدودة فى بعض بلدان العالم الإسلامي ولماذا تم تخفيف مناهج التربية الدينية فى مدارس التعليم العام؟ ولماذا لا تضاف إلى مجموع الدرجات؟؟

كم يتمنى المرء أن تكون مادة التربية الدينية ذات قيمة ومقام، ولها أهميتها وكيانها فى سياق المواد التعليمية داخل الجامعات والمدارس.

إن العدو الصهيوني فى فلسطين المحتله يجعل من التوارة محور الحركة والسكون فى المجتمع اليهودى، ولا يخجل من ذلك، بل يجعل من الدين وسيلة لشحن الوجدان الإجتماعي ضد العرب والمسلمين، ومن أجل التفوق والابداع والانتماء والقتال واستلاب الأرض العربيه المسلمه.

إن البعض فى بلادنا يريد إختزال الإسلام فى دائرة المسجد الذى تهيمن عليه السلطه، حيث تتحول المفاهيم الإسلاميه إلى مفاهيم أخرى غريبة وشاذة يمكن تسميتها بالإسلام الأمريكى أو الإسلام الإسرائيلي !! ولا حول ولا قوة إلا بالله.